منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

النزعة الإنسانية، فكر متجدد دائما

النزعة الإنسانية، إلى أين؟
سانجاي سيث

أنت موجود، فأنا إذًا موجود
ميخائيل أونْيبوشي إيزه

البعد الإنساني في العصر الإسلامي
محمود حسين

إضفاء طابع إنساني على العولمة
ميري ديلماس ـ مارتي

مرحباً في عصر «الأنثروبوسين»
روث ايروين

بين الحلم والعلم
ميشال ماير

الأطفال المجندون: العمر طويل أمامهم
فورست وايتيكر

أفضل مجال للتخيّل
أنطونيو سكارميتا

رسالة اليونسكو

تشرين الأول/أكتوبر –
كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١

ISSN 2220-3540
eISSN 2220-3559

اليونسكو في عام ٢٠١١:
نحو إنسانية جديدة وعولمة تتسم بالمصالحة

في عام ١٩٥١، أقرت اليونسكو فكرة نزعة إنسانية جديدة شاملة، وذلك لدى انعقاد «الندوة المعنية بالعلاقات الثقافية والفلسفية بين الشرق والغرب» التي نُظمت في العاصمة الهندية، نيودلهي، من ١٣ إلى ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر. وفي ذلك الحين، كان العالم قد خرج من حرب عالمية مروعة ألحقت كل الضرر بأسطورة التقدم التكنولوجي السائد في الثقافة الغربية. وفي البحث المعنون «نحو نزعة إنسانية جديدة»، أشار المشاركون في هذه الندوة إلى «انحراف العقل الذي فقد روحه» وإلى «أزمة الإنسانية». ودعوا إلى قيام «ثورة روحية» وإحراز «تقدم روحي مشترك»، مما يقتضي تعزيز علاقات التبادل بين الشرق والغرب (صفحة ٢٧).

وبعد مرور ستة عقود على هذا الحدث، تغيرت التحديات المطروحة في العالم، شأنها شأن مضامين مفهوم النزعة الإنسانية ذاته. ففي آذار/ مارس ٢٠١١، جمعت اليونسكو في مقر الأمم المتحدة، في نيويورك، «الفريق الرفيع المستوى المعني بالسلام والحوار بين الثقافات» التابع لها. وفي هذه المناسبة، أكد هذا الفريق، المؤلف من حوالي عشرين شخصية تمثل جميع قارات العالم، أن «القيام بعملية تفكير جديدة بشأن السلام والمصالحة يقترن بالسعي لتبني نزعة إنسانية جديدة للقرن الحادي والعشرين»، وهو الهدف الذي تدعو إلى بلوغه المديرة العامة لليونسكو، إيرينا بوكوفا.

وجاء في الوثيقة الختامية لهذا الاجتماع أنه « ينبغي، في سياق العولمة، ترسيخ هذه النزعة الإنسانية الجديدة في مجال التنوع الثقافي والحوار في عصر التكنولوجيات الجديدة والمصالحة بين الشمال والجنوب [...]. كما ينبغي أن تتخذ هذه النزعة طابعاً متعدداً وعالمياً، وأن تثير التأملات لدى جميع الناس في كل مكان بحيث تتيح لهم التعبير عن طموحاتهم».

ووفقاً لهذه الوثيقة المعنونة « نحو إنسانية جديدة وعولمة تتسم بالمصالحة»، فإن الهدف من النزعة الإنسانية الجديدة إنما يتمثل في «تهيئة مناخ يتيح تفهم مشاعر الآخرين، وذلك من خلال الشعور بالانتماء، وكذلك من خلال التفاهم المتبادل، واقتران كل ذلك بالفكرة القائلة إن أوجه التقدم في قضية حقوق الإنسان لا يمكن تحقيقها بصورة نهائية وإن دوامها إنما يستند إلى استمرار بذل جهود للتكيف مع التحديات المطروحة في مجال الحداثة. وليس من الممكن التصدي لهذه التحديات بدون اللجوء إلى مبادئ أخلاقية من شأنها أن تشكل القاعدة التي يستند إليها ما أطلق عليه بحق المِلك العام للقيم».

للاطلاع علي نتائج اجتماع الفريق الرفيع المستوي المعني بالسلام والحوار بين الثقافات المنعقد في آذار/ مارس٢٠١١ في نيويورك يمكن التصفح على:

http://unesdoc.unesco.org/images/0019/001923/192362f.pdf

رسالة اليونسكو

تشرين الأول/أكتوبر – كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١

منظمة الأمم المتحدة
للتربية والعلم والثقافة

السنة ٦٤
٢٠١١ – العدد ٤

تصدر **رسالة اليونسكو** فصليا وتطبع بسبع لغات عن: منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة

7, place de Fontenoy 75352 Paris 07 SP, France

يمكنكم الاشتراك بالنسخة الالكترونية مجانا عبر الانترنت على العنوان: www.unesco.org/new/ar/unesco-courier

المدير المسؤول: إيريك فالت
رئيسة التحرير: ياسمينة شوبوفا
j.sopova@unesco.org

أمانة التحرير: كاترينا ماركيلوفا
k.markelova@unesco.org

هيئة التحرير:
محررو الانجليزية: بيتر كول، أليسون ماكيلفي كليسون وداشيكا راناسينغ
محرر العربية: خالد أبو حجلة
محررة الصينية: ويني كواب
محرر الإسبانية: أراسيلي أورتيز دي أوربينا
محررة الفرنسية: فيليب تستار – فيان
محررة البرتغالية: أنا لاوسيا غويماريس
محررة الروسية: مارينا يالويان

إخراج الصور: صوفيا سوبربر

التصميم: باسيلاين أرتس إل.تي.دي.، أكسفورد

تنفيذ اللغة العربية والطباعة: اليونسكو – قسم المؤتمرات واللغات والوثائق

المعلومات وحقوق إعادة النشر : كاترينا ماركيلوفا
k.markelova@unesco.org + 33 (0)1 45 68 15 88

التوثيق: بيلار كريستين موريل فاسكيز

منصة الويب: شاكر بيرو وفان دونغ فام

المتدرب: لاندري روكينغ أموبيري

مع الشكر إلى: دانيسا بيجيلجاك

يمكنكم إعادة نشر المقالات بهدف غير تجاري وبشرط أن تكون مصحوبة باسم الكاتب

وعبارة «نقلا عن رسالة اليونسكو»، مع تحديد التاريخ ورقم العدد.

تعبر المقالات عن آراء الكتاب وليس بالضرورة عن رأي اليونسكو.

يمكن إعادة نشر الصور العائدة إلى اليونسكو مع علامة حقوق النشر على الشكل التالي: © اليونسكو / اسم المصور.

للحصول على صور عالية الدقة يمكن الاتصال ببنك الصور:photobank@unesco.org

إن الحدود الموجودة على الخرائط لا تعني الاعتراف الرسمي من قبل اليونسكو أو الأمم المتحدة، وهذا ينطبق على أسماء البلدان أو الأقاليم المعنية.

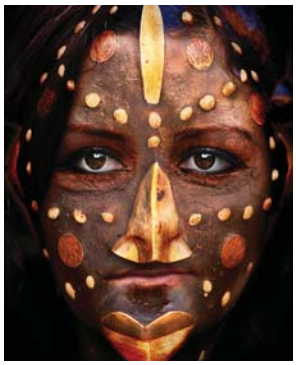

عمل فني من سلسلة "وجوه الروح" للفنان التشكيلي الفرنسي بنيامين بيني. الحوار بين الثقافات. اندماج الفن الخلاق المعاصر والفن البدائي.

©بنيامين بيني – www.benjaminbini.com

الافتتاحية – *ايرينا بوكوفا، المديرة العامة لليونسكو* ٥

النزعة الإنسانية، فكر متجدد دائما

النزعة الإنسانية، إلى أين؟ ـ *سانجاي سيث* ٦

أنت موجود، فأنا إذًا موجود ـ *ميخائيل أونْيِيبوشي إيزه* ١٠

النزعة الإنسانية كمجال للضيافة ـ *آسمينا كارافانتا* ١٤

العدالة والكرامة ـ *بوليت ديترلِن* ١٦

نحو منعطف إنساني ـ *أوليفر كوزلاريك* ١٨

البعد الإنساني في العصر الإسلامي ـ *محمود حسين* ٢٢

في سبيل عالم يسوده الانسجام ـ *ليو جي* ٢٥

اليونسكو في العام ١٩٥١: *نحو إقامة ثقافة إنسانية جديدة* ٢٧

إضفاء طابع إنساني على العولمة ـ *ميري ديلماس*
مارتي تجيب عن أسئلة ياسمينة شوبوفا ٢٨

نحو ثقافة انسانية رقمية ـ *ميلاد دويهي* ٣٢

مرحباً في عصر «الأنثروبوسين» ـ *روث ايروين* ٣٤

بين الحلم والعلم ـ *ميشال ماير* ٣٦

أخلاقيات البيولوجيا، حصن الإنسانية المنيع ـ *سلفادور بيرغيل* ٣٩

سبعة سبل أمام مستقبل الإنسانية ـ *كريستوفام بواركي* ٤١

ضيف العدد

الأطفال المجندون: العمر طويل أمامهم
فورست وايتيكر يجيب عن أسئلة كاترينا ماركيلوفا ٤٤

مستقبل الكتاب

أفضل مجال للتخيّل ـ *أنطونيو سكارميتا* ٤٧

التغلب على الإعاقة

انطلاقة برودانس ـ *قصة برودانس مابهينا*
كما يرويها روجر روس وليامز لكاتي نولان. ٥١

مقتطفات

في رحاب اليونسكو ٥٣

رابطة «جدات ساحة مايو»، محمد ولد عبد العزيز، آلسو أبراموفا، بليز كومباوري، روجر-بول دروا، جورج ادواردز، أنجيليس غونزاليس،-سيند، هيربي هانكوك، كريستينا فرناندير دي كيرشنر، باسكال ايرينيه كوباكي، جوليا كريستيفا، الحسن درامان وتارا، بريجي رافيني، روبيرتو توسكانو، عبد الله واد ...

في هذا العدد

يقول البروفيسور الهندي سانجاي سيث في مقالته الافتتاحية إن :»إثبات العناصر المشتركة بين بني البشر وكرامتهم هو أمر لا يقل إلحاحاً اليوم عما كان عليه فيما مضى» (صفحة ٦). ويبين مسارات عديدة للتفكير بشأن مضامين النزعة الإنسانية المعاصرة، مثل التشكيك في وجود عقل واحد، أو تلاقي رؤى أخلاقية مختلفة تطورت في جميع أرجاء العالم، أو ضرورة تحقيق عدالة على الصعيد العالمي. هذه هي المواضيع التي يتناولها من زوايا مختلفة كل من الكاتب النيجيري ميكائيل أونيبوشي إزي (صفحة ١٠)، والأستاذة اليونانية مينا كارافانتا (صفحة ١٤)، والمكسيكية بوليت ديتيرلين (صفحة ١٦).

ويرى الفيلسوف الألماني أوليفر كوزلاريك أن المنعطف الإنساني يركز على أهمية التقاليد الإنسانية التي تنطوي عليها جميع الثقافات (صفحة ١٨). وهو ما تؤكده، في واقع الأمر، مقالة محمود حسين التي تبين أن بعض تيارات الفكر الإسلامي تمتد جذورها إلي مفهوم النزعة الإنسانية ذاته (صفحة ٢٢). أما فيما يتعلق بالأفكار التي دعا إليها كل من كنفوشيوس ومنسيوس، فإن من الممكن اعتبارها بمثابة نموذج لوضع نزعة إنسانية جديدة كما يتصورها البروفيسور الصيني ليو جي (صفحة ٢٥).

وإن لم تنعكس المبادئ الإنسانية في الممارسات العملية، فإن النزعة الإنسانية، كما تقول أخصائية القانون الفرنسية ميري ديلماس ـ مارتي، ستبقى مجرد أمنية زائفة. ففي عصر العولمة، ينبغي لنا استخدام « القوى الابتكارية» للقانون من أجل تبني نزعة إنسانية قانونية وجامعة ومنفتحة (صفحة ٢٨). وتتناول ديلماس ـ ميري مواضيع من بينها التحديان الكبيران المطروحان في عالمنا الحديث، ألا وهما ظاهرة تغير المناخ والتكنولوجيات الرقمية والطبية البيولوجية الجديدة، وهي من المواضيع التي عالجها أيضاً كل من البروفيسور الأمريكي ميلاد دويحي (صفحة ٣٣) والأستاذة النيوزيلندية روث ايروين (صفحة٣٢) والإسرائيلية ميشال ماير (صفحة ٣٦) والبروفيسور الأرجنتيني سلفادور بيرغيل (صفحة ٣٩).

واستكمالاً لهذا الملف، يقدم السناتور البرازيلي كريستوفان بوارك مشروعاً لنزعة إنسانية جديدة تستند إلى سبع دعائم هي: تحقيق سياسة عالمية، واحترام التنوع، واحترام البيئة، وضمان تكافؤ الفرص، وتحكم الإنسان في عملية الإنتاج، والتكامل من خلال التعليم، ونشر الحداثة الأخلاقية (صفحة ٤١).

أما ضيف هذا العدد فهو الممثل والمخرج الأمريكي فورست ويتيكر، الذي تم تعيينه مؤخراً سفير اليونسكو للنوايا الحسنة. ويشرح ويتيكر، الذي التزم بقضية الجنود الأطفال، أسباب هذا الاختيار الذي دفع به إلى الدخول في عالم تسوده القسوة والظروف المأساوية، مما أبعده عن أجواء الأبهة في هوليود (صفحة ٤٤)

ويمثل مستقبل الكتاب الموضوع المفضل للكاتب الشيلي أنطونيو سكارميتا. وهذا الكاتب، الذي ألف رواية **Une Ardente patience** (التي استلهم منها المخرج مايكل رافورد أحداث فيلم **Le facteur**)، يقول إن الهدف الذي يسعى لبلوغه إنما يتمثل في الأخذ جنباً إلى جنب بأنماط مختلفة من الدعائم، كالدعائم الرقمية التي تشكل الأساس المتين في مجال البحوث والمعلومات، والدعائم الورقية التي تظل المجال المفضل لما أسماه « التخيل الذي لا يستند إلى مقاصد نفعية» (صفحة ٤٧).

وبمناسبة الاحتفال باليوم الدولي للمعوقين (٣ كانون الأول/ ديسمبر)، ننشر في هذا العدد مقابلة مع المخرج الأمريكي روجر روس وليامز، الذي حاز فيلمه **Music by Prudence** على جائزة أفضل فيلم قصير في مهرجان الأوسكار السينمائي. وفي هذه المقابلة، يروي وليامز لقاءه مع بروندانس، الشابة الزمبابوية التي تعرضت لبتر قدميها، ولكنها تجاوزت، بفضل احترافها للغناء، الكثير من العقبات التي اعترضت مسار حياتها، ومن بينها استبعاد أسرتها لها ووقوعها ضحية للتمييز والبؤس (صفحة ٥١).

ياسمينة شوبوفا

الافتتاحية

بقلم إيرينا بوكوفا

©فريد دين ويل/غودونغ

الثقافة الإنسانية وعد قديم وفكرة تبقى جديدة، لا تنفك تستدعي الابتكار. فمشروع الثقافة الإنسانية مدوّن في تاريخنا منذ القِدَم، إلا أنه يسطع في كل عصر ببريق جديد. ولكن لا يمكن في بداية الألفية الثالثة أن تحمل الكلمة نفس المعاني التي عُرِفت لها في عصر النهضة الأوربية، حين صيغت حول وجه الإنسان المثالي، سيد ذاته وسيد العالم. ويتجاوز المفهوم أيضا تلك المعاني التي أضفاها عليه فلاسفة الاستنارة، معانٍ ظلت رهينة رؤية لتُمركز العالم حول أوربا، على الرغم من التطلعات الكلّيّة النزعة التي كان يحملها هؤلاء الفلاسفة.

ألا إن احترام التنوع الثقافي عنصرٌ محوري للثقافة الإنسانية في القرن الحادي والعشرين. فهو من مكوِّناتها الحيوية، في أوان العولمة. إذ إن الكلّي ليس حكرا على أي ثقافة. بل لكلّ ثقافة إسهامها في توطيد قيمنا المشتركة.

فالظروف الإيكولوجية الجديدة، والمشكلات الأخلاقية التي تطرحها التكنولوجيات الرقمية والتكنولوجيات البيولوجية الطبية، والأزمات الاقتصادية والسياسية، كل ذلك يشكّل تحديات نطاقها كوكبنا الأرضي، والاستجابات لها تؤدّى بالتوافق عبر مهام مشتركة. ولذا يجب في الثقافة الإنسانية التي تظهر هذه الأيام أن تقوم إطارا لتأملاتنا المشتركة وللرهانات العالمية.

فالمطلوب هو تجاوز النظرية والمضيّ بقيمنا الإنسانية إلى ترجمتها عمليا، في جميع ميادين النشاط البشري. وقد شكّل اعتماد الأهداف الإنمائية للألفية جدول أعمال إنسانيَّ المذهب بامتياز. ويُفترض أن يحتل تعزيز حقوق النساء والمساواة بين الجنسين مرتبة أولوية في صميم جدول الأعمال هذا. فالثقافة الإنسانية لها اليوم طابع نسائي أيضا.

نعم، إن القيم الإنسانيةَ المذهب تشكل الأساس الفلسفي لليونسكو. وهذه القيم المكرَّسة في الميثاق التأسيسي ما انفكّت منظمتنا، منذ ٦٥ عاما، تسترشد بها في عملها لصالح سلام «يقوم على أساس من التضامن الفكري والمعنوي بين بني البشر».

فالمطلوب هو تجاوز النظرية، والمضيّ بقيمنا الإنسانية إلى ترجمتها عمليا، في جميع ميادين النشاط البشري.

وبناء عالم تسوده روح المسؤولية والتضامن، مشروع طويل الأمد، يستوجب أن تنخرط فيه معا كل القوى الإبداعية التي تمتلكها البشرية. ووسائلنا لتحقيقه متوافرة، نستمدها من الثقافة، من التربية والتعليم، من الفلسفة والعلوم والمعلوماتية، من احترام الحقوق والالتزام بالقوانين، ومن التعاون الدولي. وعليه، فبناء حصون الكرامة الإنسانية في الحياة اليومية أمر ممكن، وليس من نسج الخيال. ألا إن الثقافة الإنسانية عهد قطعناه على أنفسنا، فلزام علينا الوفاء به.

©اليونسكو/أندرو ويلر

ايرينا بوكوفا، المديرة العامة لليونسكو في مقر المنظمة في شباط/فبراير ٢٠١٠، خلال الاجتماع الأول لفريق الخبراء الرفيع المستوى بشأن السلام والحوار بين الثقافات. وفي آذار/مارس ٢٠١١، اجتمع الفريق مرة أخرى في نيويورك في مقر الأمم المتحدة حول موضوع إنسانية جديدة للقرن ٢١.

النزعة الإنسانية، إلى أين؟

إن هذا العامل المشترك، الذي يجيز تطلعنا نحو المساواة برغم ما بيننا من فروق، إنما يكمن في صميم مفهوم الإنسانية. ولئن كان فلاسفة التنوير قد سعوا إلى تلمسه في عقل الإنسانية الواحد، فإن علينا اليوم أن نبحث عنه حيث تتلاقى مختلف الرؤى الأخلاقية.

سانجاي سيث

تعني النزعة الإنسانية، من بين ما تعني، الجزْم أو الشعور بأن جميع بني البشر يشتركون في صفة أساسية، وبأن لهم، بالتالي، حقوقاً متساوية في الكرامة والاحترام. ولكن ذلك لا يكفي للتمييز بين النزعة الإنسانية وسائر المذاهب أو الاتجاهات، بما فيها تلك التي تنطوي على أفكار دينية، التي تعتبر أننا جميعاً نتقاسم سمات مشتركة، مثل خلود الروح، وهي سمات تقتضي الاحترام.

أما من الناحية التاريخية، فإن ما يفرّق، بين النزعة الإنسانية وبين كثير من المذاهب الأخرى التي تؤكد على كرامة الإنسان وقيمته، هو الشكل الخاص الذي اتخذته هذه النزعة، بالإضافة إلى حجتين واعدتين اللتين، بتأكيدهما على المساواة والكرامة لبني البشر، تسبغان على الإنسان طابعه «الإنساني» الخاص. ووفقاً للحجة الأولى، فإن الإنسان يثبت ذاته بصرف النظر عن وجود إله أو آلهة، بل إن «الإنسان» يقوم مقام الإله باعتباره مقياس الأشياء جميعاً. وتبعاً للحجة الثانية، فإن ما يتقاسمه جميع بني البشر يتمثل ويكمن في عقلانية واحدة، ولا يمكن أن يتحقق بدونها.

ومن ثم فإن تعريف النزعة الإنسانية على هذا النحو لا يجعل منها مجرد ظاهرة فكرية تعود إلى عصر النهضة. بل إنها شهدت أوج ازدهارها في عصر التنوير، أي من خلال مفهوم يخص مذهباً إنسانياً عالمياً وعقلاً واحداً.

أما السؤال الذي أطرحه هنا فهو: هل تتمثل أفضل وسيلة لتأكيد تشابه بني البشر والقيم التي يتميزون بها في فهم أنثروبولوجي للعالم وفي السعي إلى تحقيق مبدأ عقلاني واحد؟ وبعبارة أخرى، هل تمثل النزعة الإنسانية أفضل استجابة لتطلع بني البشر إلى التأكيد على الطابع المشترك للبشرية والكرامة الإنسانية؟

الإنسان في مركز الكون

يذهب إدوارد سعيد[٢] إلى أن النزعة الإنسانية هي في الأساس مفهوم قديم العهد لعالم تاريخي خلقه الرجال والنساء، وليس الإله، ويمكن إدراكه على نحو عقلاني. ومن ثم، فإن في صميم النزعة الإنسانية تيار أنثروبولوجي فلسفي يضفي على الإنسان طابعاً مركزياً، وهو ما يحد من الدور الذي يعود إلى الإله (أو إلى الآلهة) دون أن يمحوه بالضرورة.

وفي فترة ما، كان عالم بني البشر يجد تفسيراً له في مقاصد الآلهة وأفعالهم. أما وفقاً للنزعة الإنسانية، فإن فهم الآلهة إنما يقتضي فهم بني البشر، حيث أن الآلهة هم ثمرة أوهامهم.

ولئن كانت المركزية التي أضفيت على الإنسان، باعتباره خالقاً للدلالات والأهداف، تستلزم تقييداً للدور الذي كان يعود فيما مضى إلى الإله (أو إلى الآلهة)، فإنها تفترض أيضاً تفريقاً، أو تمييزاً، بين عالم إنساني وآخر غير إنساني: فثمة عالمان، أحدهما خاضع لقوانين وعمليات غير شخصية، والآخر مكون من نوايا ومعانٍ إنسانية.

وبالنظر إلى أن الطبيعة ليست مجال النوايا والمعاني، فإن معرفة الطبيعة تعني إدراك القوى غير الشخصية ذات الطابع القانوني التي تحكمها. كما أن معرفة العالم التاريخي أو الثقافي تعني سبر غور النوايا والمعاني. ففي العالم التاريخي تتجلى بالفعل معاني ومقاصد بني البشر من خلال الآثار التي يخلفونها وراءهم. وقد تفضي معرفة الطبيعة، وهي المجال الخاص بالعلوم الطبيعية، إلى السيطرة على القوى التي تتحكم فيها. أما معرفة العالم التاريخي، وهي المجال الخاص بالعلوم الإنسانية وعلوم الثقافة الإنسانية، فإنها تفضي إلى معرفة الذات.

وبدلاً من عالم واحد حيث تجد أهداف ومقاصد الطبيعة تصورها المُسبق وانعكاسها في العالم الاجتماعي، فإن النزعة الإنسانية تستحدث رؤية أخرى تتعلق بعالمين: أولهما عالَم يخلو من المعنى والمقصد، والآخر عالم

١ إدوارد سعيد [١٩٣٥ـ ٢٠٠٣]، مُنظّر أدبي فلسطيني ـ أمريكي، يُعتبر الشخصية الفكرية التي أسست الدراسات الخاصة بفترة ما بعد الاستعمار. ومن بين مؤلفاته L'Orientalisme (الاستشراق: دار النشر Seuil, 2005) وHumanisme et démocratie (النزعة الإنسانية والديمقراطية: دار النشر Fayard, 2005).

إن التغيير يتمثل اليوم في ظهور أزمة بيئية تضع الامتياز الذي ينفرد به بنو البشر موضع التساؤل، إضافة إلى التمييز القاطع بين الإنسان والطبيعة التي كانت طابع النزعة الإنسانية الكلاسيكية

يتشكل من المعاني والنوايا التي ينسبها بنو البشر إلى عالمهم في أزمنة وأمكنة مختلفة.

ولكن هذه الأفكار قوبلت دوماً بانتقادات من فلاسفة مثل هامان[٢] وكيركجارد[٣] وأدورنو[٤] وهوركهايمر[٥] وهيدجر[٦]. أما فيما يتعلق بالمفكرين الذين لا ينتمون إلى الغرب، فمن بينهم كثيرون تقبلوا قيم الإنسانية الغربية ورحبوا بها، فيما انتقدت شخصيات أخرى، مثل غاندي[٧] أو سيزير[٨] أو فانون[٩] "الحضارة" المزعومة التي غالباً ما حطت من قدر الإنسان، مع أنها كانت تتباهى بالإشادة به.

ومن حيث أن الظروف قد تغيرت، فإني أرى أنه ينبغي إعادة النظر، بعين ناقدة، في هذا الجانب من النزعة الإنسانية. فقد تمثل التغيير أولاً في ظهور أزمة بيئية تضع الامتياز المطلق الذي ينفرد به بنو البشر موضع التساؤل، إضافة إلى التمييز القاطع بين الإنسان والطبيعة التي كانت طابع النزعة الإنسانية الكلاسيكية (انظر صفحة ٣٤-٣٦). ومن الواضح أن الامتياز الذي ينفرد به الإنسان لم يكن هو وحده الذي له دور في تقويض الدعائم الضرورية لبقاء الحياة الإنسانية، بل إن التمييز ذاته بين العالم الذي كوّنه بنو البشر والعالم الذي لا دخل لهم في وجوده هو على وشك الاختفاء. فمع الاحترار المناخي واستفحال ظاهرة انقراض الأنواع، يُعتبر بنو البشر اليوم بمثابة عوامل جيولوجية، علاوة على كونهم عوامل بيولوجية (كما كان ذلك حالهم في الماضي).

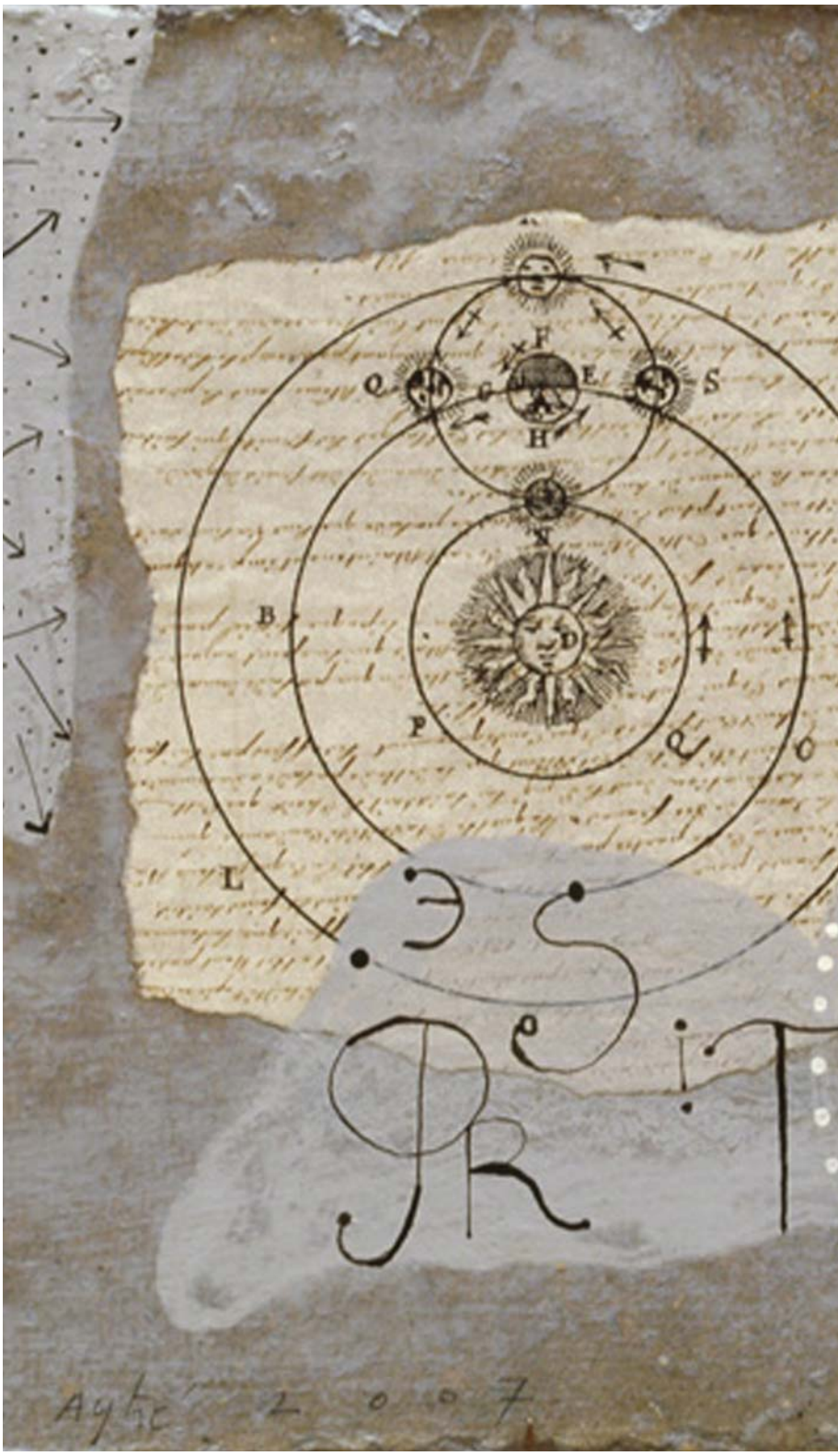

العمل الفني «النظرية المقدسة» ، للرسام والنحات الفرنسي ريشار تكسييه، ينشر بإذن كريم من الفنان.
www.richardtexier.com

©أرشيف سوموجي

٢ جوهان جورج هامان [١٧٣٠ـ ١٧٨٨]، فيلسوف ألماني، قضى ما تبقى من حياته في نزاع فكري مع كانت. ويذهب هامان إلى أن الإيمان والعقيدة يحددان الأفعال الإنسانية أكثر مما تفعل المعرفة.

٣ سورين كيركجارد [١٨١٣ـ ١٨٥٥]، فيلسوف مسيحي دنمركي، يُعتبر مؤسس الفلسفة الوجودية.

٤ ثيودور أدورنو [١٩٠٣ـ ١٩٦٩]، فيلسوف وناقد ألماني، أبرز أعضاء مدرسة فرنكفورت الاجتماعية التي كان يديرها هوركهايمر.

٥ ماكس هوركهايمر [١٨٩٥ـ ١٩٧٣]، فيلسوف وعالم اجتماع ألماني أُشتهر فكره بصفة خاصة حول ما أسماه «النظرية النقدية» التي تجمع بين فلسفة سياسية ذات توجه ماركسي وتحليل اجتماعي ثقافي للبحث التجريبي. وقد شارك أدورنو في تأليف La Dialectique de la raison (جدل العقل: دار النشر Gallimard، ١٩٨٣).

٦ مارتن هيدجر [١٨٨٩ـ ١٩٧٦]، فيلسوف ألماني، تميز بدراساته الخاصة بالتحليل الفنومولوجي للوجود، وبنقده للمذهب الإنساني الفلسفي. وفي هذا الصدد يمكن الرجوع إلى La question de la technique (دار النشر Gallimard, 1958) و«Lettre sur l'humanisme» (دار النشر Gallimard, 1946).

٧ المهاتما غاندي [١٨٦٩ـ ١٨٤٨]، زعيم سياسي وإيديولوجي. مؤسس الأمة الهندية. وألهمت فلسفته القائمة على المقاومة غير العنيفة حركات الحقوق المدنية والتحرير في جميع أرجاء العالم.

٨ أيميه سيزير [١٩١٣ـ ٢٠٠٨]، شاعر فرنسي من جزيرة المارتينيك، وهو أحد الذين أسسوا الحركة المعروفة باسم «زنوجة». يمكن الاطلاع على Discours sur le colonialisme (Présence africaine, 2000).

٩ فرانز فانون [١٩٢٥ـ ١٩٦١]، طبيب نفساني فرنسي من جزيرة المارتينيك. شارك بنشاط في نضال الجزائريين من أجل الحصول على استقلالهم. وكان من قادة الفكر في فترة إنهاء الاستعمار. يمكن الاطلاع على Peau noire, masques blancs (Seuil, 1971).

مشروع عصر التنوير

لئن كانت الأنثروبولوجيا ـ والتفرقة التي تحدثها بين الطبيعة والمجتمع ـ تُعتبر أحد العناصر الحاسمة في تعريف النزعة الإنسانية، فثمة عنصر آخر هو الاعتقاد بأن الطابع المشترك لبني البشر جميعاً إنما يكمن في عقلانية واحدة ولا يمكن اكتشافه إلا من خلالها. ذلكم هو المشروع الكائن في صميم عصر التنوير.

ويصف كانط[١٠] في مقاله المعنون "Was ist Aufklärung» (ما هو التنوير؟) التنوير بأنه التعبير عن إنسانية وصلت إلى مرحلة البلوغ بفضل الممارسة العقلية. ولكن، بما أن الرؤية السائدة لعالم منظم ومقدَّر قد «فقدت بريقها» (كما جاء في تعبير ماكس ويبر[١١])، وبما أن التقاليد والأعراف لم يعد يُنظر إليها باعتبارها مصدراً للعقل؛ ولم نعد حتى ننظر إليها بوصفها شيئاً عقلانياً، مما دفع مفكراً من مناصري مذهب الشك وهو هيوم[١٢] إلى القول بأن العقول تتعدد بتعدد الأشخاص، فإننا نتساءل: ما هو هذا العقل الذي كنا نتحدث عنه، وإلى من يُنسَب؟

وقد قدم كانط أصح إجابة عن هذا التساؤل. وتستند هذه الإجابة، أساساً، إلى الحجة التي أطلق عليها اسم الحجة «السامية». فبدلاً من أن نقول ، استجابةً «لاعتبارات عقائدية»، إن بعض القضايا صحيحة، أو أن نسعى، استناداً إلى أسس تجريبية، إلى استخلاص سلسلة من المبادئ العقلانية يشترك فيها بنو البشر جميعاً، يتساءل كانط: من نحن لكي يكون في مقدورنا إدراك المعارف والإحساسات الأولية. وهكذا يتيح التحليل السامي لكانط أن يستنبط مقولات كلية من العقل لا تأتي من التجربة الإنسانية المتنوعة، ولكنها تشكل، بالعكس، الأساس الذي ترتكز عليه أي تجربة إنسانية. وهنا يجد كانط حجة واعدة لتأييد مفهوم العقل الكلي، حيث أنه، رغم التنوع الهائل للتجارب ولأخلاقيات ومفاهيم الجمال الإنساني، يبقى هذا العقل الشرط المسبق لأي تجربة، سواء أكانت تجربة أخلاقية أو تجربة تتمثل في مفهوم للجمال الإنساني.

أما نظرية المعرفة الحديثة، كما صاغها ودافع عنها كانط، مثلما فعل ذلك مفكرو عصر التنوير بصفة عامة، فمن الممكن أن تجد الآن ما يثبت دعائمها ويبرهن على صحتها، وبذلك تضع جميع نظريات المعرفة السابقة في مرتبة العقيدة أو البحث التجريدي. وقد أثبت أيضاً ذلك العقل الواحد أنه يجب أن يُعامل جميع بني البشر، رغم ما بينهم من فروق، باعتبارهم غايات في حد ذاتهم، لا بوصفهم وسائل.

نظرية المعرفة الحديثة، كما صاغها ودافع عنها كانط، مثلما فعل ذلك مفكرو عصر التنوير بصفة عامة، فمن الممكن أن تجد الآن ما يثبت دعائمها ويبرهن على صحتها، وبذلك تضع جميع نظريات المعرفة السابقة في مرتبة العقيدة أو البحث التجريدي. وقد أثبت أيضاً ذلك العقل الواحد أنه يجب أن يُعامل جميع بني البشر، رغم ما بينهم من فروق، باعتبارهم غايات في حد ذاتهم، لا بوصفهم وسائل.

أما أكثر المحاولات اكتمالاً في عصرنا هذا التي ترمي إلى الحفاظ على مشروع التنوير أو بعثه (مع التسليم تسليماً لا مناص منه بأن العقل لا ينفصل عن المصالح والثقافة والسلطة) فإنها استندت إلى الحجة التي ساقها كانط. ويمكن بالطبع أن نوجه لهذه المحاولات نفس الانتقاد الذي وجّهه معاصرو كانط ولاحقوه المباشرون لنظريته، ألا وهو أن مثل هذه الحجج هي مصادرة على المطلوب، أي أنها تفترض القضية المراد البرهنة عليها.

وتُعد أفكار الفيلسوف السياسي جون راولز[١٣] مثالًا بالغ الفائدة. ففي مؤلفه المعنون «نظرية العدالة»، وفي بعض المؤلفات الأخرى التي وضعها فيما بعد، يستعين راولز بفلسفة كانط لصياغة نظرية في العدالة (انظر صفحة ١٦-١٨) تستند إلى عدد قليل من المبادئ يمكن الدفاع عنها بطريقة عقلانية، ويُسلم بها الجميع تقريباً. وفي مؤلفات أخرى لاحقة، يقر راولز بأن نظريته في العدالة ودفاعه عن الليبرالية إنما يفترضان بالفعل نوعاً معيناً من الثقافة السياسية العامة تم استحداثها في أوروبا نتيجة للحروب الدينية وما أحدثته من انفصال بين السياسة والدين وغير ذلك. ويحاول راولز، انطلاقاً من هذا الموقف الأخير، إعداد دفاع عملي وإجرائي عن عدالة تتميز بكونها عدالة غربية وليبرالية، ولا تصبو، بالتالي، إلى مرتبة العالمية.

إن ما «أقر» به راولز على مضض استخدمه مفكرون آخرون في حملتهم، زاعمين أن العقل ليس له طابع عالمي غير محلي، ولكنه، في نهاية المطاف، كامن في أوروبا. وهذه هي الحجج التي ساقوها لتأييد ما ذهبوا إليه: إن ما أسميناه «عقل» ليس هو العقلانية في حد ذاتها، بل هو ما تحدد تاريخياً وثقافياً لبناء العالم وتفسيره. وفوق ذلك، فإن اعتبار هذا التقليد بمثابة تقليد عالمي الطابع إنما يشكل جزءاً أساسياً من تاريخ الاستعمار وتبريره.

وقد استطاعت أوروبا، وهي على يقين من أنها تمتلك العقل الكلي نفسه، مواصلة فتوحاتها الاستعمارية، وذلك لا بحجة أنها تنقل الوحي الإلهي الحقيقي إلى الشعوب الهمجية، ولكن لكي يتمتع من كانوا حبيسي الظلمات بمزايا التنوير والحضارة. وبدلاً من محاولة استكشاف تقاليد فكرية أخرى وطرائق مختلفة للحياة في العالم، اعتقدت أوروبا أنها لم تر لدى هذه الشعوب سوى مظاهر اللاعقلانية. وساد الاعتقاد بأن المؤسسات والممارسات التي يستند إليها الاستعمار، أو التي نشأت في أعقابه، كان من شأنها تعليم الشعوب المستعمَرة من أجل أن تتمكن بدورها من بلوغ مرحلة النضوج والمشاركة في استخدام العقل الذي قدمته أوروبا لهم كهدية.

١٠ إيمانويل كانط [١٧٢٤ـ ١٨٠٤]، فيلسوف ألماني يُعتبر الشخصية الرئيسية في الفلسفة الحديثة. « ما هو التنوير؟»: عنوان مقالة نشرها في عام ١٧٨٤ في مجلة برلين الشهرية (Berlinische Monatsschrift).

١١ ماكس ويبر [١٨٦٤ـ ١٩٢٠]، عالم اجتماع واقتصاد ألماني.

١٢ ديفيد هيوم [١٧١١ـ ١٧٧٦]، من أبرز الشخصيات في تاريخ الفلسفة الحديثة وعصر التنوير في اسكوتلندا. وقد أُشتهر على وجه الخصوص بفضل مذهب الشك والمنهج التجريبي اللذين تميزت بهما فلسفته.

١٣ جون راولز [١٩٢١ـ ٢٠٠٢]، فيلسوف سياسي. يُعتبر مؤلفه المعنون «A Theory of Justice» (نظرية العدالة) الصادر في عام ١٩٧١ بمثابة دعامة من دعامات الفلسفة السياسية المعاصرة. يمكن الرجوع إلى:: Théorie de la justice (Seuil, 1997); La justice comme équité (La découverte, 2008); Libéralisme politique (PUF, 2006).

ولنكن واضحين: إنني لم أقصد البتة هنا أن أقول بأن التقليد الفكري والثقافي لأوروبا الحديثة كان هو التقليد الوحيد الذي يمتلك الحقيقة، في حين عمّت الضلالة جميع التقاليد الأخرى، أو أن أقول إنه كان التقليد الوحيد الذي أراد فرض رؤيته. فالواقع أن الغطرسة أو النزعة العقائدية لم يقتصرا على العصور الحديثة ولا على أوروبا. وما أردت أن أقوله هو أن تراث عصر التنوير ـ المتمثل في عقل تخلص من كل سياق ومن كل تقليد ـ أتاح لأوروبا القيام بغزواتها وفرض سيطرتها. وقد فعلت ذلك لا باسم تقليد أُعتبر أنه يفوق جميع التقاليد الأخرى، ولكن استناداً إلى معرفة أدعت أنها معرفة حقيقية لا يعتريها باطل، أتت من العقل نفسه، ولا تسلم بأنها مستقرة في المثل العليا والممارسات الخاصة بالمجتمعات التاريخية الواقعية.

واليوم، وبعد أن انقضى عصر الاستعمار، ينبغي أن يتضح في الأذهان تمام الوضوح أن ما يشارك فيه بنو البشر، وهو ما يتيح لنا أن «نبرر» حقهم في الكرامة والاحترام، لا يكمن في عقل واحد، ولا يمكن اكتشافه من خلاله. وقد أفضت جميع المحاولات في هذا الاتجاه، عن قصد أو عن غير قصد، إلى إبدال كلمة «إنساني» بكلمة «أوروبي» أو «غربي». وعلى الرغم من أن مفهوم العقل الواحد مستقر في أعماق الفكر والثقافة في أوروبا، فإن من غير الممكن التمسك به، بل ينبغي أن يخضع لتحليل نقدي صارم.

استكشاف سبل جديدة

لقد بدأت هذه المقالة بالقول إن النزعة الإنسانية تتمثل في إثبات أن جميع بني البشر، رغم ما بينهم من اختلافات عديدة، يشتركون في صفة أساسية، وأنه ينبغي أن يكون لهم الحق في الكرامة والاحترام. وأضفت أن ذلك يستند إلى حجتين (أو افتراضين): فوفقاً للحجة الأولي، فإن بني البشر، وليس الآلهة، هم مصدر الدلائل والقيم، وأن المجال الطبيعي الذي يخلو من المعنى والمقصد هو أمر سلبي خاضع لمعرفة الإنسان واختباراته. وتقول الحجة الثانية إن ما يناظر النزعة الإنسانية المشتركة إنما هو العقل الواحد.

ثُم قلت إنه من غير الممكن التمسك بإحدى هاتين الحجتين (أو الافتراضين)، وإنه لم تثبت أبداً صحتهما، وذلك واضح الآن كل الوضوح أكثر من أي وقت مضى. فالأمر لا يخص « حقائق» تم اكتشافها في نهاية المطاف، ولكنه يتعلق بطريقة خاصة لتفسير العالم وتكوينه. وفي هذا الصدد، فإن هاتين الحجتين كانتا مصدراً للعديد من الانجازات الإنسانية. غير أن ذلك كلف الكثير، كما يُلاحَظ اليوم، في حين أن إعلاء قدر الإنسان يقوض دعائم الحياة الإنسانية ذاتها، وأن التمييز بين ما هو إنساني وما هو طبيعي ينهار، وأنه يبدو بمزيد من الوضوح أن ما يشارك فيه بنو البشر لا يكمن في البحث عن عقل واحد يتجرد من الاختلافات الخاصة بالجنس البشري.

إن إثبات العناصر المشتركة بين بني البشر وكرامتهم هو أمر لا يقل إلحاحاً اليوم عما كان عليه فيما مضى. وبالنظر إلى أننا نستطيع إدراك هذا التأكيد باعتباره، بمعنى ما، في صميم النزعة الإنسانية، فإنه ليس في وسعنا نبذ هذه النزعة. بيد أنه يجب علينا، بالضرورة، أن نعيد بناء النزعة الإنسانية وأن نجد تفسيراً جديداً لها. والرأي عندي أن نزعة إنسانية أُعيد تفسيرها وتوفرت لها سبل الاستدامة ستكون نزعة إنسانية لا تستند فيها مشاعرنا الأخلاقية المتعلقة بالطابع المشترك لبني البشر وكرامتهم إلى نظرية مشكوك في صحتها تقول بمركزية الإنسان، أو إلى إدعاءات غامضة بوجود عقل عالمي الطابع. كما أرى أنه ينبغي أن تنطلق عملية إعادة التفسير هذه في حوار يجري بين الحضارات ومختلف الرؤى الأخلاقية، وليس بإثبات رؤية أخلاقية خاصة ـ أي رؤية تتعلق بالعالم الغربي ـ على اعتبار أن تلك الأخيرة هي وحدها التي يجب الاعتداد بها.

©فرانسوا كزافييه دوبوا

سانجاي سيث (من الهند) شغل مناصب عدة في مجال التدريس والبحث في سيدني وملبورن (استراليا) وطوكيو (اليابان)، ثم التحق، في عام ٢٠٠٧، بجامعة «جولدسميث» بلندن (المملكة المتحدة) ليعمل رئيساً لقسم العلوم السياسية ومديراً مشاركاً لمركز الدراسات الخاصة بفترة ما بعد الاستعمار.

إنسان العالم»، تحفة منحوتة للرسام والنحات الفرنسي ريشار تكسييه، ينشر باذن كريم من الفنان.
www.richardtexier.com

أنت موجود
فأنا إذًا موجود

عند كثيرين من سكان البلدان الناطقة بلغة البانطو، يُجسِّد مصطلح **ubuntu/botho** (أُوبُونْتُو بوثو) مجمل الصفات المطلوبة لشَغْل مكانة كريمة داخل المجتمع. لكن أخصّائيي اللغات والحضارات الأفريقية يستعملونه سلاحا لانتقاد النظرية الاستعمارية، وهو أيضا في صميم الإيديولوجية الإنسانية النزعة التي تعتمد عليها الديمقراطية الجديدة في جنوب أفريقيا.

ميخائيل أونْيِيبوشي إيزه

استوقفْ من شئتَ في أي شارع من هراري أو جوهانسبورغ أو لوساكا أو ليلوغوي (أي من جنوبيّ وشرقيّ القارة الأفريقية)، واسأله ما معنى أُوبُونْتُو/بوثو، يُجبْك، ولا شك، بسرد قائمة الفضائل المفترَض في أي من أبناء هذه المجتمعات أن يطمح إلى التحلّي بها، وهي: الشفقة، والسخاء، والنزاهة، وسموّ النفس، والشعور بشعور الغير، والتفهّم، والعفو، وروح التقاسم. وفي الواقع، يُدرَك معنى أُوبُونْتُو/بوثو (أو ما يعادله في مختلف الزُمَر اللغوية البانطوية)[1] كأنه تعريف «الشخص» أو تعريف «الهوية الشخصية». لكن مفهوم أُوبُونْتُو/بوثو يَطبَع مجتمعات المنطقة على نحو أوسع، مشكِّلا الأساس للأخلاق الجماعية، ولخطاب تأكيد الهوية، وحتى لإيديولوجية أفريقية شاملة، نشهد اليوم أوج ازدهارها.

إلا أن أُوبُونْتُو/بوثو، عند أخصائيي اللغات والحضارات الأفريقية، يُدرَك معناه على الأكثر كنقد للمنطق الاستعماري، لسيرورة هادفة إلى «أنسنة» أو «تحضير» الثقافات غير الغربية، عن طريق الاستعمار؛ خِطاب قوي وفوقي. نعم، لقد فرض الاستعمار نفسه بذريعة «أنسنة» أو «تحضير» الشعوب التي خارج الغرب. وراحت هذه النظرية التي تدّعي الإنسانية كذبا تمهّد السبيل للممارسات الاستعمارية في أفريقيا، بشكل داروينية اجتماعية[2]، مؤسسية، تتغذّى برأسماليةٍ عرقيةِ المنظور.

إن الرأسمالية العرقية المنظور نظرية تقول بأن العرق الذي ينتمي إليه فرد ما يُحَتِّم اختياراته ويُعيّن فرصه في الحياة، سواء تعلق الأمر بميدان العمل أو بمكان الإقامة أو باختيار الزوج والزوجة أو بالمنشآت التعليمية التي يواظب على ارتيادها، الخ. ويمكن اقتفاء تأثيرات هذه النظرية على تجربة جنوب أفريقيا، في القوانين القاسية العديدة التي كانت تُطبّق بقصد إعاقة مقدِّرات السود. ومن هذا المذهب الداروينى نشأ القانون العقاري الذي صدر عام ١٩١٣ بحظر شراء الأراضي على السود في جنوب أفريقيا، ومنه نشأ «حاجز اللون» في عام ١٩١٨، وقانون التربية البانطوية في عام ١٩٥٣ الذي ألغى تعليم التاريخ الأفريقي، وقانون وضع القيود على العمل بإعطاء الأولوية للبيض في مجال التوظيف والعمالة، وسياسات الفصل العنصري المتنوّعة التي، منذ عام ١٩٠٧، حدّت من حركة السود وجعلتهم محض أداة إنتاج.

ولكن، قبل ذلك، منذ عام ١٨٥٨ استبعد دستور البويرز في منطقة اتْرانسفآل أي شكل من المساواة بين البيض والسود في الشؤون الإدارية والدينية. وكانت الحجة السائدة هي أن الأشغال الشاقة تعيّنت بقرار من الله الذي أعطى العرق الأبيض السلطة، امتيازا له على العرق الأسود، مثلما أوضحه لاحقا في آب/أغسطس ١٨٩٧ أمام الفولكسراد [مجلس الشعب] بول

فرض الاستعمار نفسه بذريعة «أنسنة» أو «تحضير» الشعوب التي خارج الغرب. وراحت هذه النظرية التي تدّعي الإنسانية كذبا تمهّد السبيل للممارسات الاستعمارية في أفريقيا، بشكل داروينية اجتماعية، مؤسسية، تتغذّى برأسماليةٍ عرقيةِ المنظور.

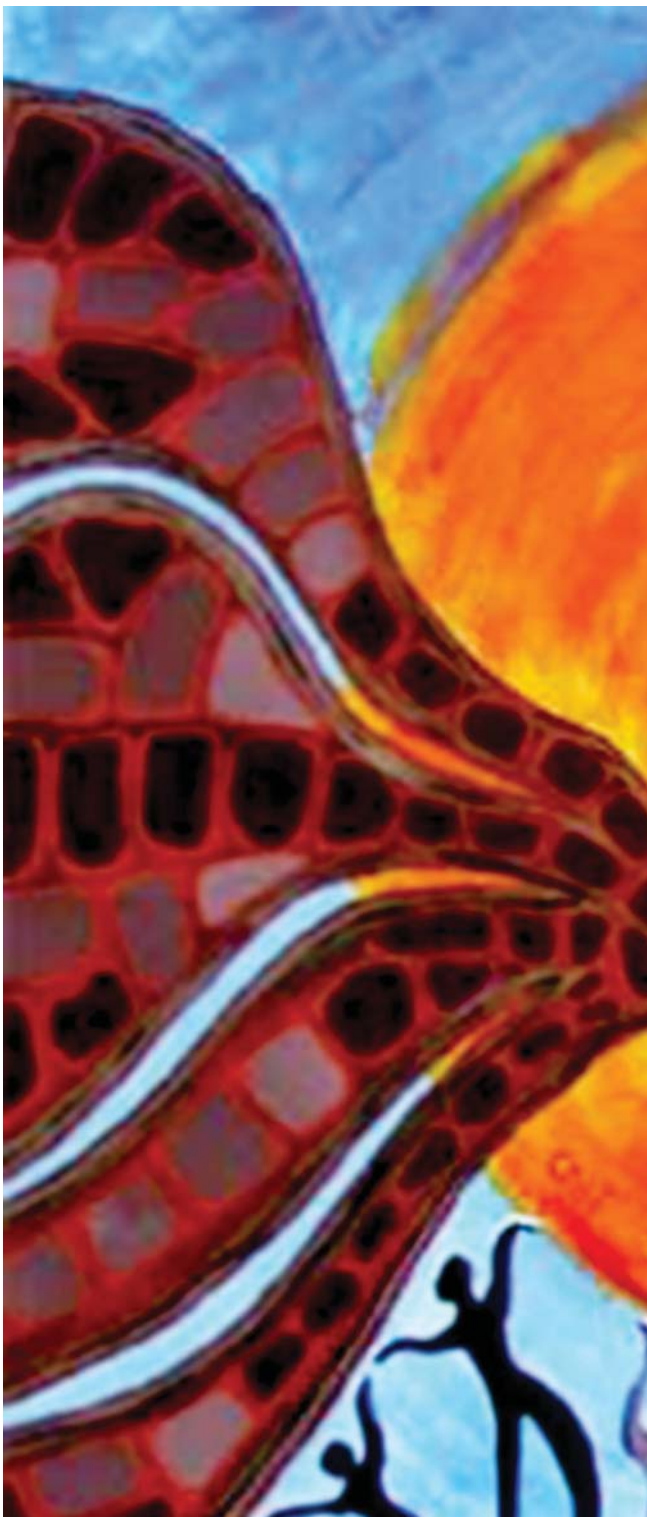

© KHANYISELA.ORG

١ لفظة أُوبُونْتُو بوتو مشتقة بوجه عام من صيغة مرجعية في اللغة الدارجة تُحيل إلى «الشخص» في لغات عدة شعوب تقطن في جنوبيّ أفريقيا وشرقيّها ووسطها (وبمقدار أقل في غربيّها)، لغات مصنَّفة بين الزُمر اللغوية البانطوية. فقوم الشونا يسمّون الشخص مُونهُو في المفرد و فانْهُو في الجمع. والصيغة عند أقوام الزولو والخوسا والنْدِيبيلِه هي أُومُونْتو في المفرد و أبانْتُو في الجمع، بينما نجد عند قوم السوثو وقوم الاتسوانا مُوثُو و باثُو بترتيب التوالي.

٢ تذهب الداروينية الاجتماعية، وقد اشتُقّت من نظرية شارل داروين في الاصطفاء الطبيعي، إلى أن الأمم القوية لها السلطة الأخلاقية أو حتى إلى أن عليها الواجب الأخلاقي أن تفتح البلدان، وتُخضِع وتسود الأمم الضعيفة. وهذا كله ناجم عن مجرد الترتيب الطبيعي للأمور.

الكُروغِر، رئيس جمهورية جنوب أفريقيا وقتئذ، قال: «دستورنا لا يقبل بالمساواة. وعلى كل حال المساواة مضادة للتوراة، لأن الطبقات الاجتماعية أقرّها الله». وقد دوّن في مذكّراته لاحقا: «(...) حيث لم يكن سوى حفنة من البيض لضبط ألوف السود، كان لا بد من القسوة. كان لزاما تعليم الإنسان الأسود أنه يأتي في الدرجة الثانية، أنه ينتمي إلى الطبقة الدنيا التي تصلح للطاعة والتعلّم».

وهذه العقلية هي التي حكمت فيما بعد كل السياسة والتاريخ الاستعماري لجنوب أفريقيا، وهي التي صارت مُرتكَزا أقامت عليه الأمة الجديدة سيادتها القومية. ولكن، بعدما استند بناء الدولة الاستعمارية في جنوب أفريقيا على الداروينية الاجتماعية، على أي أساس إيديولوجي انبغى أن تنهض الدولة الجديدة، الديمقراطية والمستقلة؟ هنا دخل مفهوم أُوبُونْتُو/بوثو ليؤدي دوره.

ففي الخطاب العمومي، فرض أُوبُونْتُو/بوثو نفسه شكلا متميِّزا من الثقافة الإنسانية الأفريقية، إذ كان حاضرا في حِكَم بانطوية مثل motho ke motho ka batho babang أو umuntu ngumuntu ngabantu (الشخص هو شخص عبر سائر الأشخاص). أي بعبارة أخرى: إنما يجد الإنسان إنسانيته في علاقته بالآخرين. وهذا المنظور لا يولِّد بالضرورة بُنية جائرة، توجب على الفرد التخلّي عن استقلاله لكي يحافظ على علاقته بـ«الآخر».

قد يصف كثير من أخصائيي اللغات والحضارات الأفريقية مفهوم أُوبُونْتُو/بوثو بأنه أخلاقية جماعية استبدادية، لا ترضى الخير والازدهار للفرد إلا كضرورة ثانوية. ولكن يُستشَفّ، من قراءة نقدية لهذه العلاقة الضرورية بالآخرين، أن إنسانية الشخص تنمو في سيرورة تقارب وتباعد، توحيد وتباين. وكلما نحقق موهبة من مواهبنا الذاتية (الإنسانية) في عمل نحو الآخر، تتولّد عندنا رغبة غير مشروطة في أن نُدرِك ونستثمر ما ينفرد الآخر بامتلاكه ويتميّز به، لا كتهديد لنا، بل كتكملة لإنسانيتنا. ومما يُبرِز سمة جوهرية لمنوال تكوّن الشخص بعلاقات التقارب والتباعد عبارةٌ أصبحت كلاسّيكية لفيلسوف مسيحي أفريقي، ج. س. امْبيتي: «أنا موجود، لأننا موجودون؛ وبما أننا موجودون فأنا موجود».

يأخذ امْبيتي بمذهب في الذاتية الإنسانية يضع صالح الجماعة قبل صالح الفرد. أما أنا فلا أوافق على إعطاء الأولوية لصالح الجماعة على صالح الفرد. لأن أيا منهما لا يسبق الآخر، في نظري. فالعلاقة بالشخص «الآخر» هي علاقة مساواة ذاتية، فيها اعتراف متبادل بإنسانية كل من الطرفين، المختلفة، ولكن المساوية، اعتراف يفتح سبيل تسامح غير مشروط، وتقدير عميق للشخص «الآخر» على اعتباره بحد ذاته هبةً تَثرى بها الإنسانية.

أتكون إيديولوجيا توحيدية؟

في تاريخ جنوب أفريقيا المعاصر، جرى تناول موضوع أُوبُونْتُو بثلاث مقاربات رئيسية.

المقاربة الأولى لا ترى في أُوبُونْتُو غير فلسفة مفارقة للعصر، وضعها الجامعيون الأفريقيون. في هذا المنظور يؤدي أُوبُونْتُو دور خطاب بديل يحتلّ محل المنطق الاستعماري أو دور خطاب مستَيْئِس في السعي إلى تثبيت الهوية، دور أخلاقية جازمة، مفتَرَض فيها أن تساعدنا على التغلّب على رَضْح الحداثة والعولمة. وبما أن أُوبُونْتُو لا يمكن اعتباره ثقافة تاريخية أصيلة، فقد أصبح الأمر يتعلق بخطاب «مُختلَق»، غريب الأصل. وبما أن أُوبُونْتُو مفهوم مُختلَق فهو إلى حدٍّ ما «فارغ»، يحاول أخصّائيو اللغات والحضارات الأفريقية من خلاله القيام بمناورة ذكية لتكوين هوية، مستعينين بقومية ثقافية «مستَوْرَدة». ويتوسّلون بموروثات ثقافية أفريقية مختلفة من أجل تحقيق التجانس في سلسلة من القيَم ثم يضعون عليها سمة أُوبُونْتُو. وهكذا يُجعَل أُوبُونْتُو قيمةً أفريقية شاملة، بصرف النظر عن السياق التاريخي الحقيقي للمجتمعات التي تمارسه. بيد أن أُوبُونْتُو لا حاجة له قط بإنتاج تاريخية متجانسة[٣] لكي يصير قيمة أفريقية أصيلة، وكذلك ما كان افتقار أُوبُونْتُو إلى أصالة تاريخية ليحرمه من شرعيته المعيارية.

والمقاربة الثانية ترى في مفهوم أُوبُونْتُو إيديولوجيا تُستغَلّ لأغراض سياسية، كما تبيّن من تطبيقه في إطار لجنة الحقيقة والمصالحة (CVR) وفي المشروع الأولي لدستور جنوب أفريقيا. فمن حيث هو إيديولوجيا، يمكن استعماله «عصا سحرية» تمكّن من مجابهة كل أزمة اجتماعية وليدة. لكن الإيديولوجية يمكن إساءة استعمالها، فلا تبقى قيمة أخلاقية وتتحوّل إلى قيمة تجارية تعطي صورة إيجابية لشركة ما أو لسمة تجارية (مثل: «كفالة أُوبُونْتُو» و «مطعم أُوبُونْتُو» و «لينوكس أُوبُونْتُو» و «كولا أُوبُونْتُو»، الخ.).

أما المقاربة الثالثة والأخيرة فهي رؤية تاريخية، تضع مفهوم أُوبُونْتُو/بوثو في الإطار التاريخي حيث كان ظهوره. فهو، لكونه تاريخيا، يكسب أيضا شرعية عاطفية وأخلاقية، بمقدار ما يُدرَك بمثابة خير ملازم ذاتيا لممارسات الجماعة التي في إطارها ينادى بقِيَم الـ أُوبُونْتُو/بوثو ويُعوَّل عليها.

وعندئذ يعود السؤال إلى معرفة ما إذا كان الـ أُوبُونْتُو/بوثو، في حال اعتباره إيديولوجية، يجعل من المستحيل قيام تاريخية إبداعية[٤]. فأُجيب بـ لا. إذ إن السياق الذي ظهر فيه الـ أُوبُونْتُو/بوثو (حتى بوصفه إيديولوجية) في التاريخ السياسي لجنوب أفريقيا كان محاولة

٣ يعني أن كتابة التاريخ الأفريقي تتمثل في سرد تاريخي وحيد، بصرف النظر عن كثرة الثقافات والشعوب والموروثات التي تملأ المساحة الجغرافية المسمّاة أفريقيا.

٤ تذهب نظرية التاريخية الإبداعية إلى القول بأن التاريخ ليس التقيّد الجامد بالماضي، ولا مجرد عرض الترتيب الزمني لأحداثه. فالتاريخ «الجيّد» هو المنفتح على شتى التأثيرات والأسيقة.

ففي الخطاب العمومي، فرض أُوبُونْتُو/بوثو نفسه شكلا متميِّزا من الثقافة الإنسانية الأفريقية

لتشكيل نظرية في الخلافة السياسية، موافقة لرؤية دنيا خياليّةٍ قومية جديدة. ومهما يكن من شكوك حول مناشئ الـ أُوبُونْتُو/بوثو فإن اللحظة التي فيها تحوّل إلى سلطة معنوية يقبلها بسهولة جميع أبناء أفريقيا الجنوبية هي التي تكوِّن تاريخيته. ومن ثَمّ فإن غياب منشأ تاريخي مؤكّد (بالمصادر المكتوبة أو بوصفه عقيدة ثقافية مرنة) ما كان ليُبطلَ مصداقيته.

إذا اعتُبِر مفهوم أُوبُونْتُو رواية وجدان قومي فإنه لا يجلب فقط شرعية عاطفية تمكّن من الاستعاضة عن النظام السياسي القديم، بل يزوّد أيضا النظام السياسي الجديد بشعور الهوية وبالغائية السياسية. فبينما كان النظام القديم يتغذّى من مفهوم مواطنة قائم على التمييز والاختلاف، سعى النظام الجديد جاهدا لاكتساب شرعية بمحاولته بناء مفهوم مواطَنة ديمقراطية على أساس الإدماج والفضائل المدنية. ولكن يتعيّن على النظام الجديد أن يتخلص من بُنى الجور التي حفل بها الماضي، لصالح نظام قيَم مبني على مبدأ حقوق الشخص البشري وكرامته المطلقة. وعندئذ يتّشح «مفهوم» أُوبُونْتُو بطابع أخلاقي إذ يخلق شعورا جديدا بالهوية القومية.

والذين ينتقدون استعمال أُوبُونْتُو باعتباره إيديولوجية توحيدية، يأخذون عليه أنه لا يقدّم إلا أخلاقية غير متّسقة، مُختَلَقة، عديمة التاريخ. لكنّ الإيديولوجيات لا تسبق التاريخ، بل تنشأ استجابة لتساؤلات تُطرح في عصر معيّن، من أجل مناهضة عقلية معيّنة (أو إيديولوجية قديمة) أو تصويبها أو إبطالها. وعندئذ يتمثل التحدي في التساؤل ما إذا كان ممكنا رد الاعتبار للـ أُوبُونْتُو بوصفه إيديولوجية، عن طريق التأكيد فوق كل شيء على طابعه المعياري، أو ما إذا كان غياب الطابع التاريخي سيحول أبدا دون اكتسابه مضمونا حقيقيا.

ولكن في الوقت نفسه، يُسترعى الانتباه إلى أن العمل بالفضائل الإنسانية الذي يجعل من البانطو شخصا متصفا بـمُنْهُو أو أُومُونْتُو أو مُونْتُو، الخ. عمل لا يجري خارج سياق الممارسة بل داخل سياقها. فقد أحرز أُوبُونْتُو تجاوُز هذه النسبية الأخلاقية، باستحداثه ممارسة أخلاقية أقرّها جميع سكان جنوب أفريقيا، على اختلاف منابتهم الاجتماعية الثقافية. ومعيار التقييم هذا هو الذي صار الخيط المرشد لبناء دولة جنوب أفريقيا الجديدة، بناء أملته الحاجة إلى المصالحة لا إلى الفرقة، إلى الغفران لا إلى الحقد، إلى التفاهم لا إلى الثأر، وإلى الـ أُوبُونْتُو لا إلى توصيف الضحية (أنظر وثائق لجنة الحقيقة والمصالحة). وتلك قيَم موقَّرة كانت أغلبية أهالي جنوب أفريقيا تتوق إليها، فمهّدت الميدان لقيام خياليّةٍ قومية جديدة. وهذه القيم هي التي تضفي على الـ أُوبُونْتُو هالة الوقار والسلطة الأخلاقية.

مشهد من الحياة اليومية في جنوب إفريقيا خلال نظام الفصل العنصري

©اليونسكو/ن.مكينا دوريل

شاطئ مخصص للبيض. مدينة كيتاون، جنوب إفريقيا، كانون الثاني/يناير ١٩٧٠.

©من صور الأمم المتحدة

ميخائيل أونْيِبوشي إيـزه باحث نيجيري-أمريكي لبّى دعوة من مركز الدراسات الأفريقية بجامعة اسْتانفورد (الولايات المتحدة). وهو حائز على دكتوراه في تاريخ الفكر من جامعة ويتِّن-هِرديكّه (ألمانيا). شغل وظائف مدرِّس للدراسات الأفريقية في جامعتَي أوغسبورغ وفرانكفورت، ونُشر له مؤلّفان: The Politics of History in Contemporary Africa (السياسة التاريخية في أفريقيا المعاصرة) و Intellectual History in Contemporary South Africa (التاريخ الفكري لجنوب أفريقيا المعاصر) (صدرا عام ٢٠١٠، عن Palgrave-Macmillan).

النزعة الإنسانية كمجال للضيافة

إن تعاقب الأزمات وازدياد عدد اللاجئين يؤثر أعمق تأثير على المشهد الاجتماعي الثقافي المعاصر في العالم. وللتصدي للتحديات الجديدة، فإننا نحتاج إلى شكل جديد لنزعة إنسانية من شأنها الاستجابة لاحتياجات المجتمعات ذات الثقافات المختلفة التي يتكاثر عددها على نحو مستمر.

آسيمينا كارافانتا

تمثل الحربان العالميتان، ومعسكرات الاعتقال والإبادة، وأماكن العمل التي يُستغل فيها العمال أسوأ استغلال وسائر الوسائل التي استخدمتها الرأسمالية العالمية الحصيلة السوداء للإنسانية في القرن العشرين، وهي الحصيلة التي تضم أيضاً ضحايا الحروب المناهضة للاستعمار والحروب الأهلية. وتدل هذه الحصيلة على الإمكانيات المدمّرة التي قد تنطوي عليها الخطابات المتعلقة بالنزعة الإنسانية إبان عصر التنوير، وذلك حينما تشكل الامتياز الإيديولوجي لفئة وحيدة من الناس ولقيمها، وهي القيم الأخلاقية الغربية على وجه التحديد.

إن الاختلاف بين الوعود التي منّت بها النزعة الإنسانية ودورها المحوري في الحملات الاستعمارية والإمبريالية والاتجار بالرقيق أثار، في ستينات القرن الماضي على وجه الخصوص، انتقادات عنيفة ضد النزعة الإنسانية ومبادئها الأخلاقية والسياسية المتعارضة. وأفضى ذلك إلى عملية هدم منتظم للنزعة الإنسانية باعتبارها مبدءاً عالمياً (انظر صفحة ٦-١٠). وقد كان من شأن عملية الهدم هذه أن اشتدت الحاجة إلى إعادة تكوين النزعة الإنسانية في منظور آخر يأخذ في الاعتبار هؤلاء «الذين لم يتم التسليم بأنهم أناس إلا منذ عهد قريب»، وكذلك مجتمعات وثقافات كل فئة منهم التي غالباً ما تكون مشتتة ومتعددة اللغات وتجمع بينها روابط ثقافية مشتركة.

ومن ثم فإن النزعة الإنسانية لم تعد امتيازاً تنفرد به الممالك والإمبراطوريات الأوروبية التي أسست مشاريعُها الاستعمارية مقتضياتها الإيديولوجية على المُثل العليا الإنسانية لعصر التنوير. فالنزعة الإنسانية لا تقتصر على أمة من الأمم باعتبارها تكويناً أحادي الثقافة واللغة. وخلاصة القول إن هذه النزعة «تعود» في شكل جديد يقضي بأن «ما هو مشترك بين الناس ليس هو العقلانية، بل هو الحقيقة الأُنطولوجية للموت؛ كما أن ما هو مشترك بين الناس ليس هو القدرة على التعقل، بل هو الضعف الناجم عن المعاناة».

النزعة الإنسانية باعتبارها ضرورة

بالنظر إلى تزايد عدد اللاجئين والأشخاص عديمي الجنسية، وتعاقب الأزمات الاقتصادية والسياسية، وتنامي الاتجاهات الأصولية، وكراهية الأجانب والأشكال الجديدة للعنصرية، فضلاً عن تعدد حركات التمرد باسم الديمقراطية، فإن النزعة الإنسانية التي تبزغ في الوقت الراهن ينبغي أن تستجيب

مظاهرة لصالح عمال بدون أوراق. فرنسا ٢٠٠٩.

لحاجة معينة. وكما جاء في تعبير المفكر الفلسطيني ـ الأمريكي إدوارد سعيد [١٩٣٥ـ ٢٠٠٣]، تحتاج الإنسانية التي ننتمي إليها «إلى سرد خالٍ من الأوهام والشطط للأحداث التاريخية من شأنه أن يبرز بوضوح تعدد التاريخ وتعقده، دون أن يفضي ذلك إلى القول بأن هذا التاريخ يتقدم على نحو لا طابع شخصيّاً له، وفق قوانين حتمتها الإرادة الإلهية أو صاحب السلطة».

ويشتهر إدوارد سعيد بتحليلاته للقيم التاريخية والفلسفية والأدبية التي تنطوي عليها النزعة الإنسانية الغربية وبما تنطوي عليه هذه القيم من قوة إيديولوجية وما نجم عنها من تأثير شديد على الثقافات غير الغربية. وقد أثار مؤلفه، الذي صدر بعد وفاته في عام ٢٠٠٤، تحت عنوان «النزعة

«عندما ينظر عدد كبير من الناس إلى الأشياء من خلال تعدد جوانبها واحتفاظها بهويتها دون تغيير، فإنهم يدركون أنهم يرون الهوية الكامنة في التنوع التام؛ وعندئذ فقط، تبدو حقيقة العالم في شكل أكيد وصحيح».

الإنسانية والديمقراطية»، نقاشات حادة. فوفقاً لما ذهب إليه إدوارد سعيد، وآخرون غيره، فإن النزعة الإنسانية «باعتبارها مجالاً لاستخدام قدراتنا اللغوية لفهم وإعادة تفسير وامتلاك الأفكار التي سادت في فترات تاريخية أخرى وتنتمي إلى لغات مختلفة وتاريخ أمم أخرى» ليست هي الوسيلة الكفيلة بتعزيز وتأكيد ما نعرفه ونشعر به منذ زمن

تمرين لتعلم الحوار، التسامح والسلام في مدرسة لبنانية، ٢٠٠٣.

بعيد. بل إن النزعة الإنسانية إنما هي وسيلة لطرح التساؤلات، وإحداث أعمق التأثيرات، وإعادة تشكيل جزء كبير من أوجه اليقين غير المثيرة للجدل والتي تم تقنينها بدون روح نقدية، ثم قُدّمت لنا في رزمة جميلة لمنتجات جاهزة للاستهلاك.

إن الحاجة إلى تناول تعقد التاريخ بالدراسة، مع الإحاطة بكيفية انتزاع ثقافات كانت منسية ومهمشة ومنبوذة حتى زماننا هذا إنما باتت ضرورة من ضرورات العصر. وإذا كان القرن العشرون هو «عصر الوعي المنفي» كما ذهب إلى ذلك إدوارد سعيد في نهاية كتابه «الثقافة والإمبريالية»، فإن القرن الحادي والعشرين هو عصر «الأنثروبوس» (الإنسان)، أي الجنس البشري بتمامه. وتعني الكلمة اليونانية «أنثروبوس» حرفياً الكائن الذي له وجه إنسان.

الإنسان في المدينة

ساد الاعتقاد، في بلاد اليونان القديمة، بأن خاصية الإنسان، مقارنة بالأنواع الأخرى، تكمن في كونه يعيش في مجتمع خاضع للقوانين؛ أي في المدينة [المدينة باللغة اليونانية:«بوليس»(polis)]. وقد صاغ الفيلسوف اليوناني أرسطوطاليس [القرن الرابع قبل الميلاد] فكرة مفادها أن الإنسان بطبيعته «حيوان سياسي»، يعيش في مدينة [باللغة اليونانية: «بيوس بوليتيكوس» (bios politikos)]. وفي تاريخ أقرب عهداً، رسمت الفيلسوفة الأمريكية ذات الأصل الألماني هاناه آرنت [١٩٠٦ـ ١٩٧٥] شخصية اللاجئ في القرن العشرين باعتباره الممثل بامتياز لمفهوم «الحيوان السياسي»«بيوس بوليتيكوس» (bios politikos) الذي لا مدينة له.

واليوم، فإن الأزمات السياسية والاقتصادية التي تتفاقم حدتها في العالم لا تفضي إلى زيادة سريعة لعدد اللاجئين المتمردين فحسب، وإنما تلحق الضرر أيضاً بمن تم التسليم بأنهم مواطنون يتمتعون بالحق في العمل والحق في التعليم، وهما من الحقوق الثابتة من زمن طويل. وهنا يصبح المواطن مواطناً بلا مدينة ومحروماً من كافة حقوقه. وفي ميادين مدن كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، مدريد والقاهرة وأثينا، حيث انطلقت تظاهرات ضخمة، يلتقي الأشخاص العديمي الجنسية بالمواطنين الذين لا مدينة لهم. وحتى إذا ما كانت مطالب كل هؤلاء غير متماثلة، فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمثل الأعلى للديمقراطية الذي يسلم بأن «الإنسان» (الأنثروبوس) هو مبدأه الأول وعنصره الأكثر رسوخاً.

وعلى الرغم من المواقف السياسية والاقتصادية المتباينة للاجئ عديم الجنسية والمواطن الذي لا مدينة له، فإن كليهما يطالب بإنشاء مدينة جديدة من شأنها أن توفر مجالاً تشكل فيه اللغات والتقاليد والأساطير المتنوعة جزءاً من حياتهما اليومية، حيث تمثل ممارسات الترجمة والتأثيرات الثقافية المتبادلة عاملاً من عوامل البقاء.

ويتمثل أحد التحديات التي تواجه الإنسانية في الوقت الراهن في تهيئة ظروف مؤاتية لتفاعل الثقافات. وبعبارة أخرى، ينبغي خلق

١ انظر المؤلف الذي قام بوضعه كل من جوديث باتلر وإرنستو لاكلو وسافوي زيزك تحت عنوان Contingency, Hegemony, Universalty. Verso, 2000

٢ انظر مقالة جون أنيم ـ أددو تحت «Towards a Post-Western Humanism Made to the Measure of Those Recently Recognized as Human» dans Edward Saïd and Jacques Derrida: Reconstellating Humanism and the Global Hybrid, Cambridge Scholars Publishing, 2008.

٣ انظر Bonnie Honig : « Antigone's Two Laws: Greek Tragedy and the Politics of Humanism », New Literary History, 41,1 (2010): 1--33

٤ النزعة الإنسانية والديمقراطية، فايار للنشر، ٢٠٠٥ (Humanisme et Démocratie, Fayard, 2005)

٥ Fayard/ Le Monde diplomatique, Paris, 2000

بسام جمال الدين ©اليونسكو/أسبنت

العدالـــة

مجتمع يتيح للاجئ والمواطن الأصلي إقامة علاقات تكون قابلة للبقاء ومثمرة. ويفترض التفاعل الثقافي، باعتباره مجالاً يمكن فيه إقامة روابط التحالف والالتحام، القيام بعملية جذرية لإعادة تشكيل المؤسسات والخطابات الاجتماعية والتربوية والسياسية، وذلك على نحو يتيح لها الاستجابة لاحتياجات العدد المتزايد من المجتمعات ذات الثقافات المختلفة التي تنتشر في الدول ـ الأمم وفي تشكيلاتها ما فوق وطنية.

إن التفاعل الثقافي يشكل شرطاً أُنطولوجياً وسياسياً كان من شأنه تغيير الدولة ـ الأمة من الداخل. ومن أجل أن يتم التسليم بأن الإنسان، من الناحيتين الاجتماعية والسياسية، هو كائن فرداني ومساوٍ للآخرين، فإن من الضروري إصلاح نظم التعليم بحيث يُمكن تطوير وسائل للتعلم وأساليب للعيش مشتركة بين الثقافات تنفتح باستمرار على قوانين الضيافة لصالح الأجنبي الذي «ينبغي له التمتع بحق الضيافة» وفق تعبير الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا[٦].

إن ما يتعين أن نبنيه الآن هو نزعة إنسانية تتيح ضيافة من لم يزل إنساناً أجنبياً. أي نزعة إنسانية تعيد تشكيل القوانين والخطابات للإنسان الأجنبي، وتستجيب لظروفه الأُنطولوجية والسياسية. وكما جاء في تعبير الناشطة الأمريكية في مجال قضايا المرأة جوديت بتلر، فإن مهمة العلوم الإنسانية إنما «تتمثل بلا شك في التوجه إلى الإنسان، حيثما وُجد، في هشاشة أوضاعه وحدود قدرته على خلق الدلالات»[٧] وبعبارة أخرى، ينبغي أن نفكر في الإنسان باعتباره الكائن الذي لم يزل يتعرض للتهديدات والمخاطر، والذي يتوجه إلينا بنظراته الثاقبة المعبرة عن دعوة صريحة ومصممة للتمتع بالعدل أينما وُجد في العالم.

آسمينا كارفانتا، الحاصلة على الدكتوراه في الأدب المقارن والمتخصصة في الآداب والنظريات المتعلقة بفترات ما بعد الاستعمار، تعمل بالتدريس في جامعة أثينا. وقد اشتركت مع نينا موغان في تأليف الكتاب المعنون : Edward Said and Jacques Derrida : Reconstellating Humanism and the Global Hybrid, Cambridge Scholars Publishing, 2008.

٦ De l'hospitalité, Calmann-Lévy, 1997

٧ Vie précaire, Editions Amstrdam, 2005

والكرامة

في العالم مئات الملايين من الأشخاص يعانون ضروبا من الحرمان والفقر. وهذه الحالة تبرر تدخّل الفلاسفة باسم عدالة التوزيع. إنه مسعى يعبِّر عن ثقافة إنسانية أصيلة، حين يمارَس مع الاحترام الواجب للكائن البشري واستقلاله ومسؤوليته..

بوليت ديترلِن

على الرغم من عديد المعاهدات والاتفاقات ومؤتمرات القمة الدولية التي شهدها القرن العشرون، وعلى الرغم مما نشهده اليوم من إرادة مكافحة الفقر وتقليل الفوارق في العالم، فإن الواقع يفرض نفسه: لم يتقهقر الفقر المدقع قيد أُنملة، بل ما انفك يتفاقم. فالبنك الدولي يُعلمنا بما يلي: في عام ٢٠٠٨ كان ١,٤ مليار من الأشخاص يعيشون دون عتبة الفقر، يعني بميزانية يومية قيمتها أقل من ١,٢٥ دولار للشخص. وبما أن عدد سكان كوكبنا اليوم يقرب من ٧ مليارات إنسان، فإن ٢٠٪ من سكان العالم لا موارد لهم تفي باحتياجاتهم الأساسية، فيعانون من معاملة تخلو من الإنسانية، ويرون أنفسهم محكوما عليهم بالبقاء على قيد الحياة في ظروف نبذ اجتماعي واقتصادي وسياسي.

في الفلسفة الأخلاقية نظرية على صلة مباشرة بموضوع الفقر وأشكال اللامساواة، تقول بعدالة التوزيع. وهذا المنحى الفكري يلبّي هاجس تصحيح القواعد التي تحكم توزيع الموارد والخيرات، متى كانت هذه القواعد غير مشروعة من وجهة نظر حقوق كل شخص أو مؤهِّلاته أو احتياجاته.

وهذه النظرية بجوانبها المتعددة ترجع على وجه الخصوص إلى المفهوم المكوَّن عن الكائن البشري والكامن خلف هذه أو تلك من سياسات التوزيع. مثلا: أن يُعتَبر الناسُ المحرومون أشد الحرمان كائنات منفعلة، غير قادرة على تحديد أهداف لها، ولا على تقرير احتياجاتها، هو مفهوم يأتي بسياسات وصاية لا تسمح للمستفيدين من التوزيع بإسماع صوتهم، ولا بممارسة التصويت على حقوقهم الحيوية، إذ إن آخرين يقومون مكانهم ويقررون عنهم. وهذه ممارسة كثيرا ما تحصل في بلدان عديدة.

وفي نظرية التوزيع منحى آخر يستند إلى تعريف الأشخاص بأنهم أساسا عملاء اقتصاد يسعون إلى تحقيق «الحد الأعلى لمنفعتهم»، يعني إلى تحسين إيراداتهم و/أو قدرتهم الشرائية. يرى الآخذون بهذا المنحى، الذي يقيس التكاليف بوحدات نقدية والنتائج بـ«وحدات منفعة»، أنه ينبغي وضع سياسات ترمي إلى زيادة وحدات المنفعة لمن هم الأكثر فقرا، بغية تحسين رفاهيتهم وانتشالهم من الفقر. في هذه الحالة، ليست السلطات العامة هي التي تقرر ترتيب الأولويات، بل إن أفضليات المستفيدين هي التي تؤخذ في الحسبان.

أما إذا كان المفهوم المأخوذ به هو أن الأشخاص ليسوا وسائل فحسب بل هم غايات أيضا، يجب في سياسات التوزيع التي تنجم عنه أن تكون مؤاتية لقيام ظروف اقتصادية واجتماعية تُتيح للمستفيدين منها فرصة تحقيق مشاريع الحياة التي يضعونها لأنفسهم. إن هذه النظرة تستند إلى مفهوم أن الكائن البشري شخص ذو كرامة ومستقل ذاتيا، قادر على الانتقاء من بين مختلف الخيارات التي تعرض له. وهذا الموقف هو، بدون أي شك، الأكثر أخلاقية والأكثر إنسانية، الذي يمكن أن تعرضه عدالة التوزيع.

العدالة العالمية

وانطلاقا مما تقدم، هل يجب في عدالة التوزيع أن تختار الشخص أم الفئة الاجتماعية وحدة للتوزيع؟ في هذه المسألة خلاف بين المفكرين الليبراليين: بعضهم يدافع عن مواقف ذاهبة إلى تغليب المساواة، والبعض الآخر يذهب في طرحه مذاهب تغلّب الجماعة. وهذا البعض الآخر يعزون فشل السياسات الاجتماعية التي تضع الفرد في صميم الممارسات السياسية إلى نسيانها أن الكائن البشري لا يعيش منفردا، بل متجذِّرا في ثقافة وفئة اجتماعية تعطيانه هويَّته. ومن هنا تأتي، عند أصحاب مذاهب تغليب الجماعة، أهمية مراعاة تاريخ كل جماعة ومميِّزاتها – على اعتبار أن كل فئة اجتماعية تولِّد أشكالا متميِّزة بالنوع، في إنتاج السلع والخدمات وإعادة توزيعها واستهلاكها.

لكن الذين يبنون عدالة التوزيع على الفرد يتمسّكون بأن الجماعات غير متجانسة، وأنه يستحيل من ثَمّ الوفاء بمعايير التوزيع دون إعطاء الأولوية للأفراد الذين تتألف الجماعات منهم.

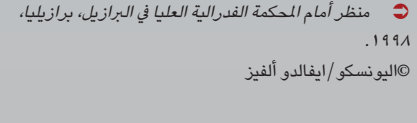

منظر أمام المحكمة الفدرالية العليا في البرازيل، برازيليا، ١٩٩٨.

©اليونسكو/ايفالدو ألفيز

نحو منعطف إنساني

ثمة قناعة تسود في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، التي طرحت جانباً فكرة ثقافة إنسانية عالمية ينبغي ابتكارها أو فرضها على الثقافات الأخرى، مفادها أن القيم العالمية تتواجد بالفعل في جميع الثقافات. وأن الناس، في جميع أرجاء العالم، يشهدون نفس التجارب المجردة من أي بُعد إنساني. وهو الأمر الذي ينبغي أن يحفزنا على التفكير فيما تعنيه حياة كريمة وإنسانية.

أوليفر كوزلاريك

إن الحركات الاجتماعية، التي قامت في ستينات القرن الماضي في جميع أرجاء العالم، قد غيّرت اتجاهها على نحو تدريجي. فقد تعاظم الاهتمام في هذه الحركات بالاختلافات بين الهويات الثقافية والعرقية والجنسية، وذلك بدلاً من البحث عن حلول شاملة يزداد تماثلها مع النزعات الشمولية. ولا شك أن الثورات الطلابية هي خير مثال على عملية إعادة التقييم المتعمقة لدور الثقافة في حياة الناس التي عبّرت عنها أيضاً النقاشات النظرية والبرامج السياسية خلال ستينات وسبعينات القرن الماضي. وفي الوقت عينه، فقد تركز الحوار الفكري والعلمي بدرجة أكبر على الثقافة، وهو حوار يأخذ في الاعتبار «المنعطف الثقافي» للعلوم الإنسانية والاجتماعية الذي يحظى باعتراف واسع النطاق في الوقت الحاضر[1].

وقد عزز هذا «المنعطف الثقافي» سلسلة من القيم ونشرها؛ ومن بين هذه القيم التعددية الثقافية والوعي، في عالمنا الحديث، بضرورة التفكير في تعايش الثقافات وأساليب الحياة، مع مقاومة المحاولات الرامية إلى اختزال هذا التعدد في وحدة اصطناعية ومجردة لا تخضع سوى لمجموعة واحدة من المصالح. ويتيح لنا ذلك أن نستشف ما ينطوي عليه «المنعطف الثقافي» من إمكانيات حاسمة. وخلافاً للفكرة القائلة بأن جميع الثقافات الإنسانية مدفوعة نحو غاية تطورية واحدة (وهي الفكرة التي ساندتها، خلال العقود الأولى التي تلت الحرب العالمية الثانية، «نظريات التحديث» ذات التأثير الواسع)، فإن «المنعطف الثقافي» أكد من جديد فكرة أن العمليات الحضارية والثقافية ـ وما ينجم عنها من نتائج ـ لا تتبع مساراً منطقياً سبق تحديده.

وعلى الرغم من الأهمية التي اتسم بها هذا المنعطف الثقافي، فإن النُعرة الثقافية أثارت بيئة من النسبية الثقافية اتسمت

إلا أنه يوجد منحى ثالث في فهم عدالة التوزيع، هو «العدالة العالمية». هذه النظرة تتجاوز مفهوم الدولة-الأمة التقليدي، مكرِّسةً اهتمامها للمشكلات التي يطرحها الفقر وأشكال اللامساواة على مستوى العالم. ومنظِّرو «العدالة العالمية» يقترحون تكوين منظومة من المؤسسات الدولية تكون مكلَّفة برفع المظالم المرتكبة بحق الأشخاص بوصفهم سكانا للكوكب وإزالة آثارها عنهم، لا بوصفهم أعضاء جماعة معيّنة أو مواطني بلد معيّن.

وفي منظور إنساني، تتلاقى هذه النظريات الثلاث – الفردية، والجماعية، والعالمية – على هدف واحد وهو: إعمال سياسات عدالة توزيع، يُعتبَر فيها الأشخاص كائنات كريمة قادرة على ممارسة استقلالها الذاتي.

فإذا كان الشخص، باعتباره غاية في ذاته، يشكل حجر الزاوية لهذا التأمل، وإذا كان المقترَح هو العمل بسياسات تُحسِّن نوعية حياة الشخص وتوفِّر له ظروف عيش لائقة تتجلّى فيها المساواة واحترام حقوقه، فقد ساغ عندئذ القول إن عدالة التوزيع مطابقة لقيم الثقافة الإنسانية.

بوليت ديترِلِن فيلسوفة وباحثة مكسيكية، عضو في معهد البحوث الفلسفية التابع لجامعة مكسيكو الوطنية المستقلة ذاتيا (UNAM)، متخصصة في موضوع عدالة التوزيع والسياسات العمومية. من المؤلفات المنشورة لها نخص بالذكر La pobreza : un estudio filosófico (الفقر: دراسة فلسفية), Fondo de Cultura Económica/Instituto de Investigaciones Filosóficas, 2002

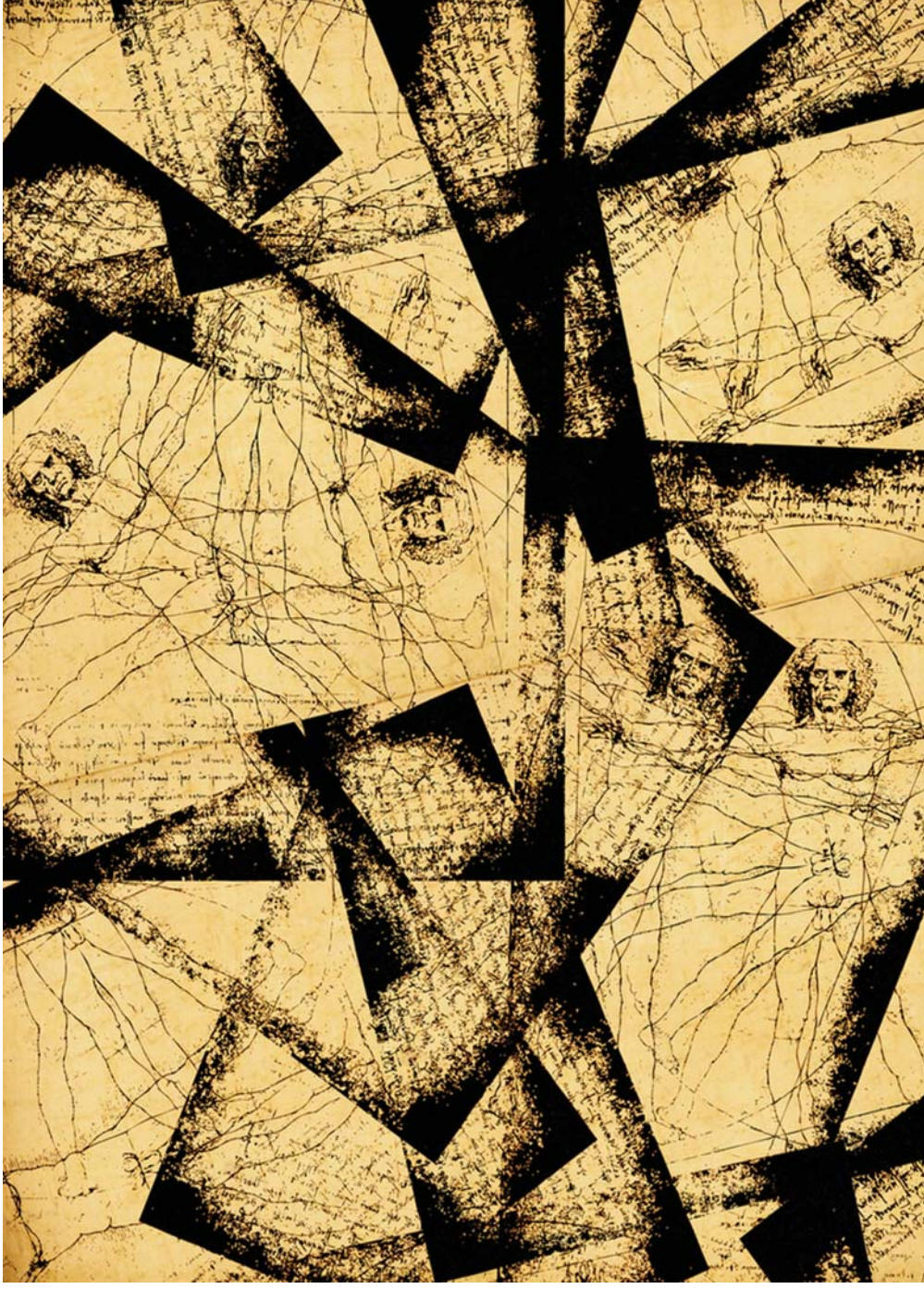

© جاناكا دارماسينا

"دراسة نسب جسم الإنسان وفقا لفيتروفيوس"، من أعمال ليوناردو دا فينشي في أواخر القرن الخامس عشر، وقد أعيد تشكيل هذا العمل من قبل المصور جاناكا دارماسينا من سيريلانكا.

بالخطورة والخداع. وقد تم تجاهل العيوب التي تُنسب إلى هذه النعرة لوقت طويل، رغم وضوحها البين. ويتمثل أبرز هذه العيوب في تأكيد أن الاختلافات بين شتى الثقافات هي اختلافات كبيرة للغاية، وأن من المستحيل التوفيق بينها؛ مع أن هذه الثقافات، في واقع الأمر، تتشارك في أوجه لا حصر لها من التقارب والتماثل.

وتقدم أعمال عالم الأنثروبولوجيا الألماني كريستوف أنتويلر لمحة متعمقة عن ازدياد «المعاييروالقيم والمثل العليا» التي تتشارك فيها الثقافات المختلفة[٢]. ويذهب هذا الباحث إلى أنه إذا لم نكن نرى أوجه التماثل هذه، فغالباً ما يعني ذلك أننا لا نريد رؤيتها، رغم أنه يكفي البحث عنها من أجل إدراكها. وإذا ما تصرفنا على نحو سليم، فسنلاحظ تأكيداً لحقوق الإنسان، ليس في «الغرب» فحسب، وإنما أيضاً في الكنفوشيوسية والبوذية والإسلام. ويؤكد أنتويلر أساساً على بُطلان فكرة «تصادم الحضارات»، كما صاغها أستاذ العلوم السياسية الأمريكي صموئيل هنتنغتون في نهاية القرن الماضي، وهي الفكرة القائلة بأن الثقافات والأديان هي التي تتعارض فيما بينها وليس الأمم.

ومن الواضح أن أنتويلر تناول في أفكاره قضية حساسة. فثمة إشارات تبين بالفعل أن النعرة الثقافية قد ضعفت حدتها. ويؤمن كثير من المؤلفين بضرورة البحث عن اتجاهات معيارية مشتركة للثقافات، وذلك لا من أجل إنكار حقيقة الاختلافات الثقافية فقط، ولكن من أجل التصدي للنسبية الثقافية أيضاً. ومن ثم فإن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هو: ما هي إذن العوامل التي تحدد هويتنا باعتبارنا كائنات بشرية، فيما يتجاوز الاختلافات الثقافية والوطنية القائمة بيننا؟ ويسعى الكثيرون إلى البحث عن اتجاه جديد يغلب عليه الطابع الإنساني، وذلك بحجة أن مجرد الانتماء إلى الجنس البشري، يمنحنا، فيما يبدو، شكلاً جديداً من التضامن العالمي. غير أني، بصفتي الشخصية، أعتقد أن هذه الإنسانية المشتركة ليست كافية. فهي إنسانية ذات طابع تجريدي مفرط.

استخلاص الدروس من النزعات الإنسانية التقليدية

إن علينا بالأحرى أن نستهل حواراً بين الثقافات وأن نتساءل عما تعنيه الحياة الكريمة التي ينبغي للإنسان أن ينعم بها. إن توعية بعضنا البعض بذاتيتنا ككائنات بشرية إنما تتجلى في إطار ثقافي ومن خلال الثقافة. واستناداً إلى دراسة الثقافات والمقارنة بينها، نستطيع أن نتوصل بالفعل إلى معرفة العامل المشترك الذي يجمع بينها. وينبغي أن يُكمل «المنعطف الإنساني» و«المنعطف الثقافي» أحدهما الآخر. ويعني هذا أن النزعة الإنسانية يجب أن تستند إلى التبادل الثقافي وأن تعتمد على الحوار.

إن جميع الثقافات والحضارات تنطوي على تقاليد إنسانية. غير أن «المنعطف الإنساني» لا يمثل عودة إلى أشكال تقليدية للنزعة الإنسانية. ومن بين المشكلات التي تثيرها هذه التقاليد أنها تسترشد بتجارب تاريخية لم نعد ننتمي إليها. وبالنظر إلى أن النزعة الإنسانية اقترنت بعصر النهضة الأوروبية، فإن من غير الممكن، على سبيل المثال، فصلها عن النزعات الرامية إلى تحدي سلطة الكنيسة.

وثمة مشكلة أخرى تتمثل في العلاقة المُبالغ فيها التي تربط أشكالاً تقليدية عديدة للنزعة الإنسانية بالمذهب الطبيعي. ويمكن أن نذكر من جديد مثال النزعة الإنسانية في عصر النهضة الأوروبية التي كانت ترمي إلى الكشف عن «طبيعة الإنسان» وتوافقها مع «طبيعة الكون». وما زال هذا المذهب التقليدي الطبيعي راسخاً تمام الرسوخ في المنتديات العلمية، حيث يتم اختزال الأوضاع

١ Doris Bachmann-Medick, Cultural Turns. Neuorientierungen in den Kulturwissenschaften, Rowohlt Verlag 2006

٢ Christoph Antweiler : Mensch und Weltkultur [Homme et culture mondiale], Transcript Verlag, 2010

الإنسانية في آليات بيولوجية. وينبغي لمناصري النزعة الإنسانية الجديدة، التي تخلت عن المذهب الطبيعي، أن يدركوا أن طابعنا الإنساني إنما يتشكل في إطار ثقافي ومن خلال الثقافة.

إن من الخطأ أيضاً أن نرفض رفضاً باتاً الأشكال التقليدية للنزعة الإنسانية التي يمكن الكشف عنها في الكثير من جوانب التراث الثقافي المتمايزة. فالواقع أن هذه الجوانب تنطوي على دليل لا يمكن دحضه ومفاده أن بني البشر يتبادلون، كما فعلوا ذلك على الدوام، أفكاراً رئيسية بشأن معنى الإنسانية بالذات. ومع ذلك، فإن استخلاص الدروس من التقاليد الإنسانية الأخرى لا يقتصر على إعادة تأكيد ما نعرفه بالفعل فحسب. فقد بيّن البروفيسور شون ـ تشيه هوانغ بكل وضوح وبراعة في مؤلفه عن النزعة الإنسانية في المذهب الكونفوشيوسي في شرق آسيا[٣] أن الكونفوشيوسية التي ظهرت في الشرق الأقصى ترمي، في المقام الأول، إلى الكشف عن العلاقة المتناسقة بين بني البشر والعالم الاجتماعي والثقافي الذي ينتمون إليه. وليس في وسع المرء إلا أن يُسلم بأن عاطفة بمثل هذه القوة تخص «انسجام العالم» يمكن أن تساعدنا على تجاوز الكوارث البيئية والاجتماعية التي تقترن بانهيار العالم الطبيعي في الوقت الراهن وبظروفنا الاجتماعية. وينبغي تناول هذه القضايا من منظور يستند إلى التبادل الثقافي. وما زلت مقتنعاً كل الاقتناع بأن العلوم الإنسانية والاجتماعية تتيح مجالات ممتازة للاهتمام بالحوار الثقافي المتبادل بين مختلف التقاليد الخاصة بالنزعة الإنسانية.

فقدان الإنسانية كتجربة مشتركة

ثمة فكرة أبرزها إريك فروم[٤] مفادها أن من الممكن التوصل إلى فهم إنساني مشترك رغم ما بيننا من اختلافات. فالنزعة الإنسانية ليست إلا نتيجة لتجارب الاستلاب. كما أنها صيحة غضب أطلقها هؤلاء الذين يعتقدون أن أوضاع الحياة الكريمة والإنسانية في طريقها إلى الزوال. وفي العالم الذي نعيش فيه، فإن التجارب الفردية قد تتفاوت تفاوتاً كبيراً للغاية. فالفرص المتاحة ليست موزعة بالتساوي، كما أن السلطات الاقتصادية والسياسية والعسكرية مركزة بصورة غير متساوية.

غير أن هذا العالم هو عالم تتجاوز فيه بعض تجارب الاستلاب هذه الاختلافات. ونحن نعاني جميعاً من انهيار بيئتنا الطبيعية. كما أننا نعيش جميعاً في مجتمعات تضعف فيها العلاقات الاجتماعية بسبب تزايد الشعور بعدم الثقة. أما الفئات الأكثر ثراءً من غيرها فإنها تحاول التعويض عن ضعف العلاقات الاجتماعية عن طريق الاستهلاك، في حين أن أشد الفئات فقراً تعاني من عجزها عن إشباع رغبتها في الاستهلاك. وفي معظم مناطق العالم، يتعرض الناس إلى أشكال قديمة وجديدة من العنف والظلم؛ كما أن سلوك المؤسسات السياسية والاقتصادية تجعل من الصعب على السكان الشعور بالانتماء إليها.

وهنا أيضاً، وفيما يتجاوز الاختلافات المحلية والاجتماعية، فإن التجارب المجردة من أي بُعد إنساني التي يعيشها الناس تتماثل في كل مكان في العالم. ولا شك أنه يتعين علينا استخلاص الدروس إنْ كان لنا أن نقارن بين الثقافات المعاصرة على المستوى العالمي. فجنوب أفريقيا، موطن جون ماكسويل كوينزي[٥]، يماثل البرازيل، موطن روبيم فونسيكا[٦]. أما نقد الحداثة الذي صاغه أوكتافيو باز[٧] فإنه لا يختلف عن النقد الذي وضعه تيودور أدورنو[٨]. ومن الممكن أن توسع البحوث المقارنة في العلوم الاجتماعية نطاق فهمنا لظاهرة انعدام الطابع الإنساني التي يعاني منها الإفراد في جميع أرجاء العالم.

النزعة الإنسانية في الحياة اليومية

لا ينبغي أن يُعتبر «المنعطف الإنساني» بمثابة مشروع يقتصر على الأوساط العلمية أو الفكرية دون غيرها. فقد أشار مؤخراً المؤرخ الألماني جورن روسين أنه يجب أن تنطوي النزعة الإنسانية على طموحات «عملية». ويقول في هذا الصدد:»يجب وضع مفهوم الإنسانية في سياقه الاجتماعي بحيث يمكن أن يحظى بالقبول ويجد مكاناً له في الحياة الواقعية»[٩]. وأعتقد أن ما يعبر عنه روسين هنا يتسم بأهمية حاسمة. فالواقع أن من خلال ممارسة تأثير رئيسي على طريقتنا في التفكير والعمل في الحياة اليومية، يمكن أن تعزز النزعة الإنسانية بزوغ ثقافة إنسانية لا تقتصر على جوانب ثقافية ونظرية مجردة. وذلك لأن «ترجمة» الأفكار والقيم الإنسانية في الممارسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليومية هي، في المقام الأول، مهمة تؤول إلى المؤسسات السياسية والاقتصادية. وهنا أيضاً، فإن للعلوم الاجتماعية والإنسانية دوراً ينبغي أن تضطلع به. فيجب أن يُخصص ممارسو هذه العلوم جزءاً على الأقل من جهودهم لتطوير ونشر ثقافة إنسانية النزعة، وذلك خارج برجهم العاجي.

ويبدو أن المنعطف الإنساني الذي ترتسم معالمه في الوقت الحاضر في العديد من الأوساط العلمية وغير العلمية، يستند إلى ضرورة تجاوز إدراكنا للاختلافات الثقافية من أجل السعي للتوصل إلى ما يجمعنا، وذلك دون إغفال ما يفرقنا. وبدلاً من تعقب ما هو عالمي في الطبيعة البيولوجية، أو التفكير في ضرورة ابتكار ثقافة إنسانية عالمية أو في فرضها على الثقافات الأخرى، فإن المنعطف الثقافي الحالي يستند إلى المبدأ القائل بأن الأفكار والقيم ذات الطابع الإنساني موجودة بالفعل في جميع الثقافات المختلفة.

وفي نفس الوقت، يبدو أن هذه الإنسانية الجديدة تسلم بأن الحداثة العالمية تحتاج إلى توجهات معيارية يمكن لكافة بني البشر قبولها. كما أن هذه الإنسانية هي نتاج تجارب مشتركة للاستلاب أحدثتها الحداثة العالمية في مناطق مختلفة من العالم. غير أن المهمة الرئيسية إنما تتمثل في ترجمة الأفكار والقيم إلى ممارسات يومية.

---

٣ Chun–chieh Huang, Humanism in East Asian Confucian Contexts, Transcript Verlag, 2010

٤ إريك فروم [١٩٠٠ـ ١٩٨٠]، اختصاصي بالتحليل النفساني ومن مناصري النزعة الإنسانية. أمريكي الجنسية ومولود في ألمانيا. وضع عدداً من المؤلفات هي:
La peur de la liberté (1941), L'Art d'aimer (1956) et Societé aliénée et société saine (1955, 1ère éd. française 1967

٥ جون ماكسويل كوينزي، كاتب من جنوب أفريقيا. نال جائزة نوبل في الأدب عام ٢٠٠٣.

٦ روبين فونسيكا, كاتب برازيلي.

٧ أوكتافيو باز [١٩١٤ـ١٩٩٨] مؤلف وكاتب مقالات مكسيكي. نال جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٩٠.

٨ تيودور أدورنو [١٩٠٣ـ ١٩٦٩]، عالم اجتماع وفيلسوف وعالم موسيقى ألماني.

٩ Jörn Rüsen/Henner Laass (éd.), Humanism in Intercultural Perspective. Experiences and Expectations, Transcript Verlag, 2010

أوليفر كوزلاريك، أستاذ الفلسفة السياسية والاجتماعية في معهد البحوث الفلسفية التابع لجامعة ميشواكانا سان نيكولاس في هيدالغو (المكسيك). وقد شارك، بين عامي ٢٠٠٧ و٢٠٠٩، في مشروع بحثي بعنوان «النزعة الإنسانية في عصر العولمة»، ثم إنه يدير، منذ عام ٢٠١٠، المشروع المكسيكي «الحداثة والنقد والنزعة الإنسانية». وفي الوقت الحاضر، يشارك كوزلاريك في إصدار مجموعة مهمة من المؤلفات عن النزعة الإنسانية بين الثقافات؛ كما أنه نشر
Humanismo en la era de la globalización: Dsafíos y perspectivas (2009) (avec Jörn Rüsen), Octavio Paz: Humanism and Critique (2009)

بدلاً من تعقب ما هو عالمي في الطبيعة البيولوجية، أو التفكير في ضرورة ابتكار ثقافة إنسانية عالمية أو في فرضها على الثقافات الأخرى، فإن المنعطف الثقافي الحالي يستند إلى المبدأ القائل بأن الأفكار والقيم ذات الطابع الإنساني موجودة بالفعل في جميع الثقافات المختلفة

عمل فني من سلسلة "وجوه الروح" للفنان التشكيلي الفرنسي بنيامين بيني. الحوار بين الثقافات. اندماج الفن الخلاق المعاصر والفن البدائي.

© بنيامين بيني – www.benjaminbini.com

البحوث الدولية

إن موضوع "النزعة الإنسانية في عصر العولمة: حوار بين الثقافات عن الإنسانية والثقافة والقيم" كان مشروع البحث الذي اضطلع به معهد الدراسات المتقدمة في الإنسانيات (KWI) بإسن (ألمانيا) تحت إشراف جورن روسين. واستهدف هذا المشروع استهلال حوار بين باحثين من أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا وأوروبا، وذلك من أجل تحديد مختلف التقاليد الإنسانية في مناطق مختلفة من العالم، وتأكيد ما تتسم به هذه التقاليد من أهمية بالنسبة لعالمنا الحديث المعاصر. وعلى الرغم من أن المشروع قد انتهي بصفة رسمية في نهاية عام ٢٠٠٩، بعد أن استفاد من دعم قدمته المؤسسة الألمانية Mercator، فإن نشر نتائجه يتواصل. وتضم مجموعة المؤلفات التي انطلقت في عام ٢٠٠٩ بالشراكة مع دار النشر الألمانية Transcript Verlag، ١٤ نشرة بالألمانية والإنجليزية. وتمتد هذه المبادرة أيضاً من خلال مشاريع بحثية أخرى، مثل مشروع "الحداثة والنقد والنزعة الإنسانية" الذي يشرف عليه أوليفر كوزلاريك بدعم من المجلس الوطني للعلوم والتكنولوجيا في المكسيك (CONACyT).

البعد الإنساني في العصر الإسلامي

خلافاً للاعتقاد السائد، فقد تطورت النزعة الإنسانية داخل الفكر الديني اليوناني أولاً، ثم في الفكر الديني الإسلامي، وأخيراً في الفكر الديني المسيحي. وفي الفترة بين القرنين التاسع والثاني عشر، بدأ المعتزلة ومن بعدهم فلاسفة الإسلام في تفحص حدود الأفكار الإنسانية النزعة ومذهب حرية الاختيار في عالم خاضع لتدبير إله واحد قدير، منبئين بقيام حركة التنوير الموسوعية في القرن الثامن عشر.

محمود حسين

لم تولد النزعة الإنسانية في أوروبا إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشركما يعتقد البعض. وان كانت هذه الفترة، المعروفة باسم «عصر النهضة»، إحدى مراحل التاريخ الطويل للنزعة الإنسانية التي بدأت قبل ذلك بألفي سنة في أثينا واستمرت خلال العصر الذهبي للإسلام بين القرنين التاسع والثاني عشر.

ولقد اعتمد مفكرو عصر النهضة اعتماداً تاماً على التراث اليوناني القديم، وهو التراث الذي أعادوا الاعتبار إليه واتخذوا منه نموذجاً مثالياً لأفكارهم. غير أنهم تجاهلوا الحقبة الإسلامية من تاريخ النزعة الإنسانية.

ويذهب الذين يقعون في نفس الخطأ في الوقت الحاضر، إلى أن النهج الإنساني النزعة هو، في الأساس، نهج مناهض للدين. بينما تطورت النزعة الإنسانية، خلال أطول فترة من تاريخها، في إطار الفكر الديني، وليس ضده. فلم يتشكك البتة في القدرة الإلهية فلاسفة وفنانون وشعراء وأدباء وعلماء مثل ليوناردو دافينشي[١]، وميكال آنجلو[٢]، وشكسبير[٣]، وراسين[٤]، وديكارت[٥]، ونيوتون[٦].

ومع ذلك، فإن النزعة الإنسانية كان لها اعتراض شديد على تصور الإله من وجهة نظر معينة. فهناك إله يتعذر ادراكه ولا تعنيه تعاسة بني البشر؛ وهو الذي حدد منذ الأزل مصير كل مخلوق من المخلوقات. ويؤدي هذا التصور الى مذهب القدَر الذي يقضي بأن

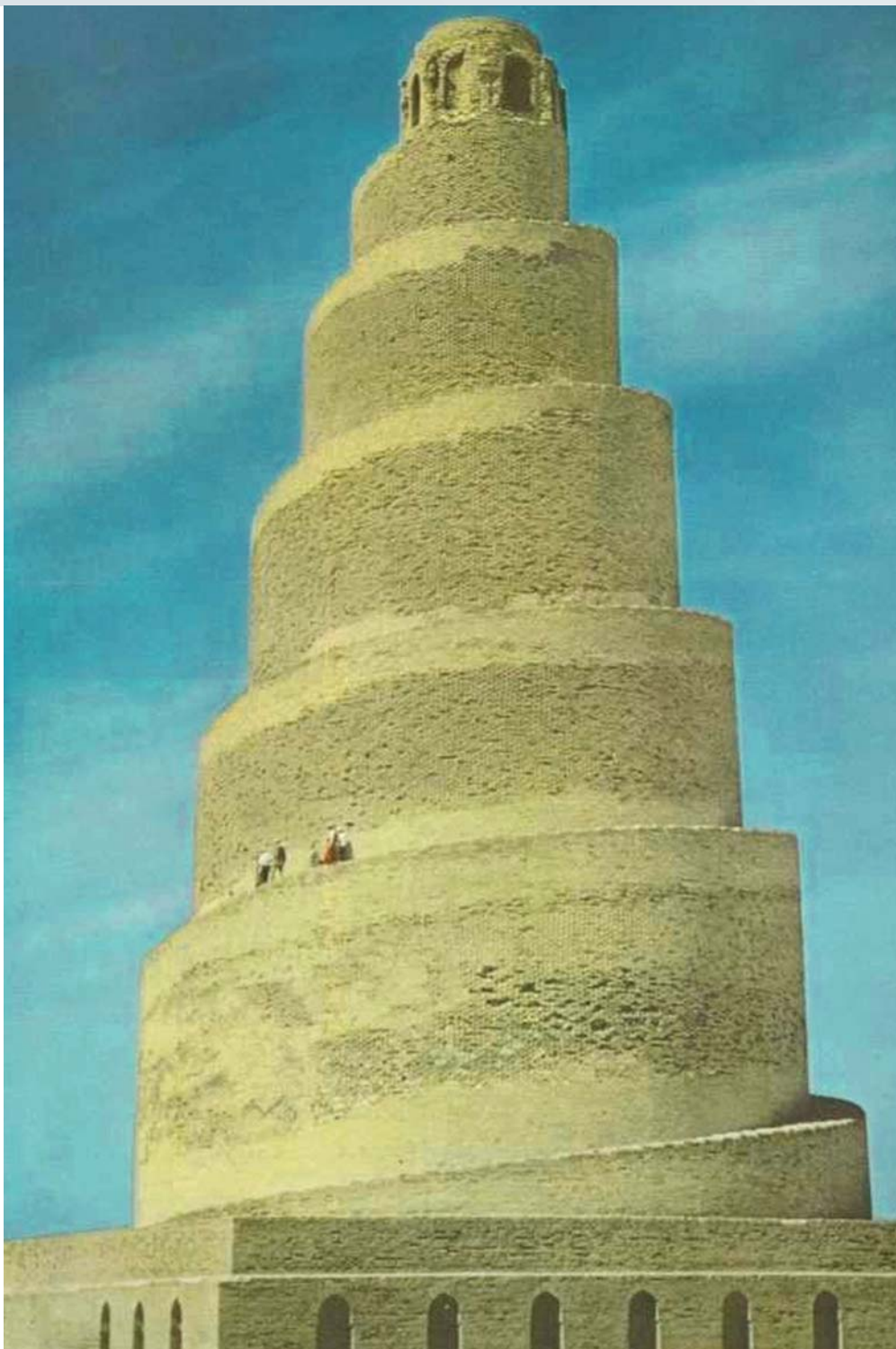

© عز الدين - Wikimedia Commons

مسجد أبو دولاف في سامراء العراق هو واحد من الأعمال المعمارية الأكثر أهمية في الإسلام. انه يعود الى القرن التاسع. مدينة السامراء الأثرية هي من مواقع التراث العالمي لليونسكو.

حياة البشر لا تخضع بالمرة لإرادتهم. وليس للوجود الدنيوي أهمية في حد ذاته – فهو مجرد سبيل يؤدي إلى ملكوت السماوات – بل إن الإنسان وفق هذا التصور أعجز من أن يقرر مصيره فيه. (كما إن هذا الوجود يخلو من حرية الاختيار). فالإنسان لا حول له ولا قوة بالمرة إزاء القدرة الإلهية المطلقة.

وجاء في رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل أفسس[٧] أن الله بارك المختارين الذين اختارهم «قبل تأسيس العالم» ليكونوا «قديسين»...إذ سبق وعيَّنهم «حسب مسرّة مشيئته». وبعد ألف سنة من صدور هذه الرسالة، ذهب أهل السنة والمتكلمون الكلاسيكيون المسلمون نفس المذهب. وبعد هؤلاء بسبعة قرون، ردد لوثر[٨] وكالفِن[٩] نفس كلمات رسالة القديس بولس. وقد تصدت النزعة الانسانية لهذا التصور للقدرة الإلهية.

ولكن ما هي العوامل التي جعلت من التراث اليوناني القديم نموذجاً أخذ به هؤلاء الذين تصدوا لمذهب القدَر في العالم الإسلامي أولاً، ثم في العالم المسيحي بعد ذلك؟

نطاق للحرية الفكرية

وقد ساد مفهوم القدر المدن اليونانية في سياق مخالف تماماً لسياق الديانة التوحيدية، تحت اسم آخر. وتمثل هذا المفهوم في أن الكون إنما يشكل مساحة متناهية تم تنظيمها بطريقة هرمية ومتناسقة، حيث تحدد نهائياً مكان كل مخلوق فيه. أما بنو البشر فإنهم لم تكن لهم الصدارة الكونية، بل كان هناك آلهة أعلى منهم مرتبة. ومع ذلك فقد كان الجميع يخضعون لقوانين الكون، سواء أكانوا آلهة أم بشراً.

وخضع بنو البشر لنيْر نوعين من الكائنات: كائن مجرد وغير مُشخص وثابت، وهو الكون، وكائنات أخرى مُشخصة ومألوفة ومتقلبة الأهواء، أي الآلهة.

ولم يكن لبني البشر في هذا التصور أية حيلة إزاء نظام الكون؛ وكل ما يستطيعون عمله هو أن يجدوا فيه مكاناً مناسباً لهم وأن يسعوا للمراوغة والمفاوضة والخداع في تعاملهم مع آلهة تتوافر لهم قدرات تفوق طاقة البشر، رغم ما فيهم من نقائص وعيوب، شأنهم في ذلك شأن جميع الناس. وسيكتشفون في نهاية المطاف أن الطبيعة تسير سيرها وفق القوانين الخاصة بالكون، وهي القوانين التي لا تخضع لمشيئة هؤلاء الآلهة، وأن في إمكانهم، بالتالي، إدراك هذه القوانين والتحكم فيها.

وفي هذا المجال تتثبت دعائم النزعة الإنسانية. فقد ابتكر اليونان القدماء محيطاً جديداً، يقوم على أسس إنسانية خالصة، ألا وهو المدينة («بوليس» باللغة اليونانية). ولم يخضع الفرد في هذه المدينة لسلطة القبائل والعشائر، كما تساوى فيها المواطنون أمام القانون، وكانت الجدارة الشخصية هي المحك، وليس امتيازات المولد.

وفي المدينة اليونانية الديمقراطية، كان الحوار يسود بين مواطنيها؛ واحتلت الخطابة مكانة الصدارة: فمن أجل إقناع الناس، وجب إعمال العقل. كما أتاحت مبادئ المنطق التجريدي، الصالحة التي كان الجميع يُسلّم بها في كل مكان، نشر الأفكار الفلسفية والرياضية. ومن هنا توافرت للناس قدرات هائلة مكنتهم من السيطرة على مجريات الأمور.

وهكذا، أُعتبرت الحركة الإنسانية، في بلاد اليونان القديمة، بمثابة نطاق للحرية الفكرية والكفاءة العملية، حيث تتحول حياة الإنسان إلى مغامرة تستمد قيمتها من ذاتها، وذلك دون التشكيك، بوجه الإجمال، في النظام الكوني وفي قدرة الآلهة.

قدرة الإنسان

إن إله ديانة التوحيد غيّر المعتقدات التي كانت سائدة لدى اليونان. وذلك أن هذا الإله لم تتوافر له القدرات الجزئية التي كان يتميز بها آلهة اليونان فحسب، وإنما آلت إليه أيضاً القوة الكونية الشاملة التي خضع لها هؤلاء الآلهة، شأنهم شأن بني البشر. فقد حلت القدرة الكلية المُشخصة والخلاقة والفعالة التي تميز الإله محل القوة المجردة غير المُشخصة، التي خضع لها الكون.

ومن ثم فقد تعيّن على المؤمن، في إطار هذه القدرة الكلية الإلهية، أن يبحث عن مجال يمارس فيه حريته، مما لا يعني وضع القدرة الإنسانية التي لا وزن لها مقابل القدرة الإلهية التي لا حدود لها. بل إن المقصود هو تمهيد السبيل لتحقيق مجالات فكرية وأخلاقية وجمالية، يمكن للمبادرات الإنسانية أن تتحقق فيها وأن تتميز عن مشيئة الإله دون التشكيك في سلطانه الأعلى.

وقد تمت صياغة هذا المجال فكرياً للمرة الأولى في القرن التاسع، في بغداد، وذلك في ظل الخلافة العباسية.

١ ليوناردو دا فينشي [١٤٥٢- ١٥١٩]، عبقري عالمي وأحد فلاسفة الحركة الإنسانية الإيطاليين.

٢ ميكال آنجلو [١٤٧٥- ١٥٦٤]، رسام ونحّات ومهندس معماري عاش في عصر النهضة في إيطاليا.

٣ وليام شكسبير [١٥٦٤ـ ١٦١٦]، يُعتبر أحد أعظم المسرحيين والشعراء الإنجليز.

٤ جان راسين [١٦٣٩ـ ١٦٩٩]، يُعتبر أحد أعظم المسرحيين الفرنسيين.

٥ رينيه ديكارت [١٥٩٦ـ ١٦٥٠]، رياضي وفيلسوف عقلاني فرنسي.

٦ إسحاق نيوتن [١٦٤٣ـ ١٧٢٧]، فيزيائي وفيلسوف وأحد علماء اللاهوت الإنجليز.

٧ رسالة إلى أهل أفسس، الأصحاح الأول.

٨ مارتن لوثر [١٤٨٣ـ ١٥٤٦]، راهب ألماني، تزعم حركة الإصلاح البروتستانتي في ألمانيا.

٩ جان كالفِن [١٥٠٩ـ ١٥٦٤]، لاهوتي وأديب فرنسي، نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم في سويسرا.

صورة مصغرة من ألبشر بسورية في وقت مبكر من القرن الثالث عشر. الصورة تمثل سقراط الى اليسار مع اثنين من طلابه.

©متحف قصر توبكابي باسطنبول، تركيا.

كان الاسلام في ذلك الحين، قد بنى إمبراطورية مترامية الأطراف، امتازت بالقوة والازدهار، وشملت العديد من مختلف الجماعات السكانية والأديان والثقافات. وضمت عاصمتها بغداد مليون نسمة، بينما بلغ عدد سكان روما ٣٠٠٠٠ نسمة وعدد سكان مدينة لوتس أقل من ١٠٠٠٠ نسمة في ذلك الوقت. وكانت الثقة تسود المعاملات إلى حد أن وثيقة تجارية تم التوقيع عليها في أقاصي الهند كانت تُعتبر صحيحة في المغرب. ومال كبار الخلفاء إلى ممارسة هذه السلطة، ومواجهة هذا التنوع بإعمال العقل. فقد شجعوا ودعموا الجهود الرامية إلى الحصول على المعارف القديمة ـ بما فيها المعارف غير الدينية المستقاة من التراث اليوناني الفلسفي والعلمي، والتي كان قد تم نقلها إلى العربية.

وقد أتاح هذا المناخ الفكري نشأة مذهب من مذاهب علم الكلام في الأوساط الفكرية الدينية، تمثل في أفكار المعتزلة الذين تناولوا دراسة القرآن من منظور عقلاني.

ووفقاً لهذا المنظور، فإن الإنسان هو مخلوق متميز يختلف عن سائر المخلوقات الأخرى بالنظر إلى أن الله كلّفه وجعل له قدرة وإرادة بحيث يكون حراً في خلق أفعاله المسؤول عنها.

وهذه الحرية هي التي تتيح للإنسان أن يتصرف وكأنه «خليفة الله في الأرض». والواقع أن الإنسان، في حياته الدنيوية، لا ينبغي أن ينزوي عما يدور حوله. بل على العكس، يجب عليه أن يثبت ذاته ويبدي روح المبادرة ويطور مواهبه، وذلك من أجل الإسهام في بناء مدينة إسلامية تسودها عوامل التضامن والعدل.

وفي هذه المدينة، فإن الوجود الدنيوي له مكانته. إذ أنه يستلزم بقدر الإمكان، تحسين الظروف المعيشية للناس. وفي هذه المدينة أيضاً يتعلق الناس بما هو جميل، ولا يحتقرون الجسد ولا اللذات، وذلك في حدود اللياقة والتحفظ.

ويقول القرآن الكريم إن «الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين» (السورة ٤٠، الآية ٦٤).

وفي يوم الحساب، يوم توضع فيه الموازين، ستُحاسَب كل نفس على ما قدمته من حسنات وما اقترفته من سيئات في حياتها الدنيوية. والله أعلم بأفعال العباد كلما صدرت عنهم. وهو يجازي من يشاء وفق عدالة أخلاقية وعقلانية.

هذا، وقد أيد بعض كبار الخلفاء العباسيين المذهب المعتزلي، بل وحاولوا فرضه على جماعة الفقهاء. ولكن هذا المذهب كان قد بلغ من الجرأة والخروج على المألوف ما أزعج معظم أهل السنة والفقهاء، بل وعلماء الكلام أنفسهم، ودفعهم لمعارضته.

وقد رفضوا جميعا فكرة قراءة أفعال الله من منظور عقلاني، حيث أن مثل هذه القراءة تحد من قدرة الله الكلية. كما أن الإرادة الإلهية إنما هي من الأسرار التي لا نعلم كنهها، وبالتالي، فهي لا تخضع لأي قيد من القيود. ومن ثم، فان لله الذي حدد مصير كل مخلوق مسبقاً، الحق في أن يجازيه على حسناته بالنعيم وعلى سيئاته بالعذاب، وذلك وفق مشيئته التي لا يمكن سبر غورها.

ولما كانت هذه الرؤية، التي تعبر تعبيراً تاماً عن مذهب القدَر، لا تقوم على أساس من العدل والأخلاق، فالمطلوب من المؤمن هو ألا يحاول فهمها، بل أن يتقبلها كما هي؛ كما يجب عليه أن يُسلّم أمره إلى الله بأيمان كامل غير مشروط. وأن يطمع في رأفة الله ورحمته.

أسلاف الموسوعيين

حُسمت المواجهة بين المعتزلة وأهل السنة، ابتداءً من القرن التاسع، لصالح الأخيرين. ولم يقم أهل السنة بالقضاء على مفهوم حرية الاختيار فحسب، بل أنهم سعوا جاهدين للكشف عن جميع الاتجاهات العقلانية في الفكر الإسلامي ومناهضتها.

وقاموا بصفة خاصة بمناهضة الفلاسفة الذين انخرطوا في وضع منهج موسوعي يرمي إلى الإحاطة بجميع مجالات المعرفة. ومن خلال رد الاعتبار إلى التخصصات العلمية غير الدينية التي بدأها علماء اليونان ـ كالطب والرياضيات وعلم الفلك وعلم الصيدلة ـ فإنهم درسوا الطبيعة في حد ذاتها، وليس الطبيعة باعتبارها دليلاً على القدرة الإلهية الكلية.

وعكف فلاسفة الإسلام ومن بينهم الكندي[١٠] والفارابي[١١] وابن سينا[١٢] وابن رشد[١٣] على وضع أفكار مبتكرة ـ تم من خلالها التوفيق بين الفلسفة العقلانية الأرسطية وعقيدة التوحيد ـ ألهمت بعد ذلك موسى بن ميمون[١٤] وتوماس الأكويني[١٥]. ووفقاً لهذه الأفكار، لا يوجد فرق أنطولوجي بين الحقائق التي يتوصل إليها الفلاسفة والحقائق التي يوحي بها الله إلى أنبيائه. اذ يتلقى الأنبياء، عن طريق وحي فجائي، ما يكتشفه الفلاسفة، خطوة فخطوة، عن طريق مجهود عقلاني.

وهكذا سبر الفلاسفة أغوار فكر إنساني في إطار عقيدة التوحيد. ومن خلال تغليب الحجج العقلية على الحجج السلطوية، حتى وإنْ كانت تلك الأخيرة تستند إلى وحي إلهي، فإن هؤلاء الفلاسفة كانوا رواداً للنهج الموسوعي الذي تميز به القرن الثامن عشر.

وقد دام تأثير الفلاسفة، رغم أنه كان أقل وضوحا، وقتا أطول من تأثير المعتزلة. فقد شهد الفلاسفة عصوراً مجيدة في بغداد وقرطبة والقاهرة؛ ولكن أفكارهم مرت بفترات طويلة من الانزواء. وبوفاة ابن رشد في نهاية القرن الثاني عشر، لم يعد للفلاسفة نفوذ فكري يُذكر.

وفي غضون ذلك، انقسمت إمبراطورية الإسلام إلى كيانين ثم إلى ثلاثة كيانات متنافسة. كما أنها تعرضت لهزائم عسكرية كبرى، وذلك أمام الصليبيين حول القدس وفي مواجهة الملوك الكاثوليك في الأندلس. وبعد ذلك، اجتاحتها الغزوات المنغولية المروعة.

ثم إن هذه الإمبراطورية، التي سادتها الشكوك، شهدت انتقال السلطة في مختلف عواصمها من أيدي أمراء على قدر كبير من العلم والثقافة إلى رؤساء طوائف عسكرية. فتراجع البحث الدؤوب عن المعارف أمام محاولات الدفاع المرتعشة عن أوجه لليقين دامت طويلاً. وانحسر مذهب حرية الاختيار في العالم الإسلامي. وبانحسار هذا المذهب، لم يعد للنهج الإنساني النزعة أي معنى.

ومع ذلك، ظلت أعمال الفلاسفة الإسلاميين، التي تُرجمت من العربية إلى اللاتينية، تُدرّس في جميع الجامعات الأوروبية. وخلال قرون عديدة، غذّت هذه الأعمال الحوارات الكبرى التي أفضت إلى نشأة الفكر في عصر النهضة.

١٠ الكندي [٨٠١ـ ٨٧٣]، أحد أعظم الفلاسفة العرب. ترجم عدداً من النصوص اليونانية.

١١ الفارابي [٨٧٢ـ ٩٥٠]، من كبار فلاسفة الإسلام. قام بشرح عدد من مؤلفات أفلاطون.

١٢ ابن سينا [٩٨٠ـ ١٠٣٧]، فيلسوف ومؤلف وطبيب وعالم فلك وكيميائي فارسي.

١٣ ابن رشد [١١٢٦ـ ١١٩٨]، فيلسوف وفقيه وعالم رياضيات وطبيب أندلسي.

١٤ موسى بن ميمون [١١٣٨ـ ١٢٠٤]، طبيب وفيلسوف وحاخام أندلسي.

١٥ توماس الأكويني [١٢٢٤ـ ١٢٧٤]، من أهم رواد الفلسفة المدرسية وعلم اللاهوت الكاثوليكي.

محمود حسين، باحث مصري في العلوم السياسية والإسلامية. آخر مؤلف له:
Penser le Coran. Folio Essais, Gallimard, 2011

©تسينغ بينغ كيو/اليونسكو

القاعدة المأثورة عند الكنفوشية لمعاملة الآخرين هي الخيرية، وعند الموهية المحبة الشاملة، وعند التاوية الشفقة والرأفة، وفي البوذية الطيبة والوِدّ. تلك هي القيم الأساسية في الحضارة الصينية، ويجوز اعتبارها نماذج لإحلال انسجام شامل، ومن ثَمّ إقامة ثقافة إنسانية جديدة.

«الحب»، لوحة بالحبر الصيني على ورق الأرز تم لصقها على ورقة مزركشة من طرف تشيو تشنغ بينغ. أهدى الفنان هذا العمل لليونسكو في عام ٢٠٠٦ للاحتفال بالذكرى ٦٠ لا نشاء المنظمة، وهي منشورة هنا بإذن من المؤلف.

في سبيل عالم يسوده الانسجام

لـيو جـي

الثقافة الإنسانية الجديدة ليست من الجِدّة بقدر ما يبدو. إنها بالأحرى أحد مُنتَجات التطور التي صنعتها البشرية. يمكن أن تُقرَن نشأتها باسم جورج سارتون [١٨٨٤-١٩٥٦]، المؤرخ الأمريكي الشهير، البلجيكي الأصل، الذي أعاد تعريف الثقافة الإنسانية من زاوية نظر علمية. فقد عكف على بدايات العلم سعيا إلى فهم تعقيدات السلوك البشري، ودافع عن فلسفة تركيبية للعلوم بقصد سد الفجوة بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وسمّى هذه الفلسفة «ثقافة إنسانية جديدة».

لكن من يُعتَبَر في أغلب الأحيان المؤسس لهذه الحركة هو الناقد الأدبي الأمريكي، إيرفينغ بابِّتّ [١٨٦٥-١٩٣٣]. كان بابِّتّ، وقد هاله ظهور تدريجي لمجتمع مادي في الولايات المتحدة، يرى أن الغرب صار فريسة غرائز انفعالية فردية النزعة، فراح يدعو إلى الاعتدال وإلى سلوك متسامح. وإذ كان عدوا للرومنطيقية، تضاربت مبادئه العظيمة مع

هذا المقال مقتبس بتصرّف من الكلمة التي ألقاها ليو جي في المنتدى الأوربي الصيني التاسع الذي أقيم في مقر اليونسكو يومي ٢٧ و ٢٨ حزيران/يونيو الأخير، تحت عنوان Embrace the Era of New Humanism (الانخراط في عصر الثقافة الإنسانية الجديدة).

نزعة عصره الفكرية، فتعرّض للنقد والطعن، لكن مبادئه غذّت مع ذلك نقاشا فلسفيا واسع النطاق، أعطى صيغة للفكر الثقافي المحافظ في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وتغلغلت فلسفة بابِّتّ الإنسانية في الوجدان السياسي والأدبي الصيني، عن طريق عدد من العلماء الصينيين المتبحّرين، كانوا قد عرفوه أثناء دراستهم في جامعة هارفارد. تأثّر بابِّتّ بالقيم البوذية والكنفوشية فاستهوى ثقافيا طلبته الصّينيين، ثم تصرّف هؤلاء محلّيا منشئين تيّارا إنسانيا جديدا، كرد فعل على حركة ٤ مايو التي كانت تدعو إلى نبذ القيم التقليدية الصينية، والماركسية، والمعتقدات الراديكالية.

فضيلة ومشاعر وانسجام ومحبة

إن الممارسات التي نجمت عن الثقافة الصينية القديمة يجوز اعتبارها نموذجا لإقامة ثقافة إنسانية جديدة. ويمكن، على سبيل المثال، ذكر كتاب التحولات (المعروف أيضا باسم يِي جينغ)، واحد من أقدم النصوص الكلاسيكية الصينية، منسوب إلى الإمبراطور فو اهْسي [٢٩٥٣-٢٨٣٨ قبل الميلاد]. يتناول هذا المصنَّف موضوع التوازن بين الأضداد وحتمية التبدّل. ومما جاء فيه «من خلال رصد زخارف السماء، نستطيع إدراك مبدأ تبدّل الفصول الأربعة. ومن خلال رصد العلاقات الأخلاقية بين الناس وتعليمها للشعب، نستطيع تغيير التقاليد الاجتماعية نحو الأفضل». وبناء عليه، يتوجّب علينا أن نرصد الطبيعة البشرية كي نتعلم كيف نحسّنها، وأن نحترم القيم الأساسية للثقافة الصينية، مثل الفضيلة والمشاعر والانسجام والمحبة.

فتاريخ الصين الطويل ارتكز دوما على الفضيلة، الشخصية منها والاجتماعية، فكانت المرشد للشعب الصيني في حياته اليومية، كما ارتكز على الوجدان الباطني الذي وضع المبادئ لضبط وتسوية السلوك الاجتماعي. أما الحضارة الغربية فإنها تسيِّر السلوك الاجتماعي مستعينة بسلطات خارجية مبنية على استدلال علمي، ومن هنا كانت الأسبقية والغلبة للقوانين.

ويشبه التفريق الثنائي بين الحضارتين الغربية والصينية كثير الشبه انقسام دماغ الإنسان إلى نصفين: في الجانب الأيسر مركز المنطق، وفي الجانب الأيمن مركز الانفعالات. فطاقة هذين النصفين لا تتجلى بكاملها إلا إذا اشتغلا معا. فينبغي إذًا أن يُقرَن المنطق بالمشاعر لكي يمكن تكوين تصوّر الثقافة الإنسانية الجديدة بمقياس كبير.

ينوط الصينيون أهمية في غاية العظمة بـ«دَيْن العرفان» المدينون به بعضهم نحو بعض، فيسددون ديونهم مهما كلّفتهم.

يعتبرون العاطفة الأسرية مقدسة، ويحاولون تجنب الدخول في نزاع علني مع أقارب فيمتنعون، مثلا، عن إقامة دعوى قضائية عليهم. إلا أن الصعوبة تكمن في التوفيق بين الإخلاص للأمة وإكرام الوالدين، وهذا يعني الاحترام الواجب على الأبناء التعبير عنه تجاه آبائهم.

ومبدأ الانسجام يبعث على سلوك فردي «يتسم بطيب المزاج» داخل النظام

يشبه التفريق الثنائي بين الحضارتين الغربية والصينية كثير الشبه انقسام دماغ الإنسان إلى نصفين: في الجانب الأيسر مركز المنطق، وفي الجانب الأيمن مركز الانفعالات

الاجتماعي الصيني. فالأسر تعتقد أنها إذا عاشت بانسجام، تصير مزدهرة. واللياقة في العلاقات المهنية تعتمد على مفهوم أن «الانسجام مصدر غنى». والانسجام هو، في حكم البلاد، الغاية التي ما بعدها غاية، في حين أن المجتمع الغربي يعتقد بمبدأ «بقاء الأقدر على التكيّف» وبشريعة الغاب حيث «القوي يفترس الضعيف».

والانسجام يشتمل أيضا على علاقة الوحدة المثلى بين الإنسان والطبيعة، إذ هو جزء منها لا ينفصل ويتعيّن عليه أن يحترم قوانينها.

الجذور الكُنفوشية للثقافة الإنسانية

القاعدة المأثورة لمعاملة الآخرين هي عند الكنفوشية الخيرية، وعند الموهية المحبة الشاملة، وعند التاوية الشفقة والرأفة، وفي البوذية الطيبة والوِدّ. يبدو أن المحبة هي الموضوع الكلي الحضور في جميع المدارس الفكرية الصينية.

وصف الفيلسوف الصيني العظيم كنفوشيوس [٥٥١-٤٧٩ قبل الميلاد] الخيرية بأنها «محبة الناس». فقد أعلن: «أنت نفسك ترغب في مرتبة وموقع، فساعد إذًا الآخرين ليحصلوا على مرتبة وموقع. وتأمل أن تُظهر محاسنك، فساعد إذًا الآخرين على إظهار محاسنهم».

الغاية القصوى في نظر الكنفوشيين هي تهيئة عالم يسوده انسجام شامل، يتحابّ الناس فيه جميعا بالتساوي. وذلك يستتبع أنه يتوجّب على الجماعة مساعدة من هم الأقل حظا، والمسنّين، واليتامى، والمَعوقين؛ وأن الموارد المادية يجب استعمالها لأعمال الخير؛ وأن الثروة الاجتماعية يجب أن تكون لجميع الناس ملكا مقسوما بينهم.

ويرى الكنفوشي الشهير مِنغ كي، المعروف باسم مِنسيوس [٣٧٢-٢٨٩ قبل الميلاد]، أن الإنسان مفطور على أربعة مشاعر، مثلما خُلِق بأربعة أطراف. فالشفقة هي بداية الخيرية، والحياء بداية الاستقامة، والحِشمة بداية الاحترام، والتمييز بين الخير والشر بداية الحكمة». بهذه المشاعر الأربعة يتميّز الإنسان عن الحيوان، ولا يمكن أن يُعتَبَر الإنسان إنسانا حقّا إلا بتنميتها تنمية متكاملة.

وقد شكّلت تعاليم كنفوشيوس ومِنسيوس حجر الزاوية للثقافة الصينية التقليدية طيلة آلاف السنين، ولا تزال سائدة اليوم. وفي نظر بعض المفكرين أن فلاسفة الاستنارة، حين شيّدوا ذلك الأثر العظيم الذي هو إعلان ١٧٨٩ لحقوق الإنسان والمواطن، كانوا متأثِّرين بالكنفوشية.

فلا يمكن للثقافة الإنسانية الجديدة إلا أن تزداد غنى بتمثلها عناصر من الثقافة الصينية. ألا إن بناء عالم منسجم، المثال الأعلى الشامل الذي تتوق إليه البشرية منذ قديم الزمان، يستدعي، في ظل التطور الشديد السرعة الذي تشهده المجتمعات البشرية، قيام ثقافة إنسانية جديدة.

لـيو جـي هو الرئيس الشرفي لمدرسة الشؤون الدولية الصينية الأوربية
CEIBS, China Europe International Business School

© لورنت غولدشتاين/المجموعة

اليونسكو في عام ١٩٥١: نحو ثقافة إنسانية جديدة

قبل اليوم بـ٦٠ سنة، نظّمت اليونسكو في نيودلهي اجتماع "تحاور في موضوع العلاقات الثقافية والفلسفية بين الشرق والغرب"، خرج بإقرار فكرة ثقافة إنسانية جديدة شاملة. وفيما يلي، ننشر مقتطفات من المذكِّرة التي قدّمها المشاركون في ذلك الاجتماع التحاوري تحت عنوان "نحو ثقافة إنسانية جديدة". في تلك الفترة التي تميّزت باستقلال الشعوب الآسيوية، وقد كانت هذه الشعوب لا تزال تعاني رَضْح الماكينات الجهنّمية التي أتت بها الحرب العالمية الثانية، تمثّلت الخطوات الأولى التي خطاها مشروع الثقافة الإنسانية، المنطلِق بدعم اليونسكو، في العمل على التقريب بين الثقافتين الشرقية والغربية. .

[...] ما يُطلق عليه الإنسان الغربي منذ أربعة قرون تسمية الثقافة الإنسانية هو طموحه إلى السيطرة على ذاته وعلى العالم، من خلال ممارسة نشاطه الفكري بمعزل عن سائر جوانب حياته. [...] وما سمّاه ميدان الإنسان الكامل هو أخذ الإنسان العالم بأسره في الاعتبار، لكن هذا الإنسان مقصور على جزء من ذاته. فيجب الرجوع عن هذا الخطأ من أجل تصحيح توجّه الثقافة الإنسانية وتوسيع آفاقها.

ليس المقصود هو هدم تلك الثقافة الإنسانية، وليس كذلك بِوارِدٍ، كما قلنا، إنكارُ فتوحات العلم، فتوحات تُسجَّل، على كل حال، في إيجابيات ذلك الفكر عينه. إذ إن الثقافة الإنسانية الغربية مثّلت، في فترة ما وفي أماكن معيّنة، مجال إنجازات إنسانية ما زالت تحتفظ بقيمة ذاتية فائقة. لكنَّ ما لم يعد جائزا السماح به لتلك الثقافة الإنسانية هو أن تستبعد وجود غيرها [...]. لأنه إذا كانت كلمة ثقافة إنسانية هي الاسم الواجب إطلاقه على موطن العبقرية البشرية، فالثقافة الإنسانية لا يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر وحسب، وليس مهدها الوحيد والدائم هو أوربا حوض البحر المتوسِّط، وليس مصدرها محصورا في فكرة معيّنة عن الحضارة الإغريقية اللاتينية القديمة [...]. وبالمقابل، متى أعيد وضع الثقافة الإنسانية التي شهدتها العصور الحديثة في الغرب ضمن الحدود الواجب فرضها عليها، لا تعود الأزمة

صورة من سلسلة «تأملات في العين الذهبية» الفرنسية للمصور الفرنسي لورنت غولدشتاين، منشورة بإذن من المؤلف.

المنفتحة أمامها الآن مستغرَبة قطعا، فهي ليست بكارثة لا مخرج منها. فالكارثة هذه لا تصير مطلقة إلا في حال الإصرار بعناد على التمسّك بأن المطلق هو مرجعية العقل البشري المهيبة. لكن الإنسان أصبح اليوم يستنجد على هذا الغلوّ في الادعاء، بإدراك كلّي لحقيقته وطاقته.

فبعد أن قضى الإنسان أربعة قرون جاهدا في تفكيك كل الأشياء، وتفكيك نفسه أولا، بعمل تحليلي، ها هو يعود إلى إدراك الوجود إدراكا تركيبيا كوجود عادت به الروح إلى الحياة. ومن ثَمّ فإن كل القِيَم، أيّا كان مكانها من العالم، وأيّا كان زمانها من حياة العالم، تستعيد لا وظيفتها فحسب، بل أيضا مرتبتها في نظام المراتب. فهي، سواء جاءت من الشرق أو الغرب، ليست بعد في حالة تنافس، بل تتجه كلها، بنزوع إلى التلاقي، نحو الثقافة الإنسانية الجديدة، النازعة إلى الشمول بحركتها الواقعية لا بادعاء مبالغ ومطعون فيه. [...]

الا إن التحرّك الضروري في هذه الأيام هو تحرير حياة الفكر من أسرها داخل الحدود التي أطبقها الفكر الغربي عليها حقبة طويلة من الزمن. فالثقافة الإنسانية الجديدة ستوجد حيث تُطبَّق طرائق السلوك والعمل، التي استطاع العقل الغربي تحصيلها، على إعادة اكتشاف ميادين روحية طال الزمن على هجرها. وعندئذ، بدلا من أن يدفع العقل الإنسان نحو التعرض لمخاطر ناجمة عن زهوه وتعدّيه بشتى الأشكال، يستجمع هذا العقل كل ما أوتي من توقّد وقوة، فيسخِّره لخدمة قضية الإنسان الكامل حقا، هذه المرة: لا الإنسان الذي حرفه الهوس العقلي بالاتجاه المادي، بل الإنسان الموحَّد جسدا وروحا، وذلك لكي يجابه بوجدانه ما يكتنفه من سرّ عظيم.

ونعتقد أنه إذا تسنّى لهذه الثقافة الإنسانية أن تقوم، فعندئذ سيشهد الشرق والغرب تلاشي الكثير مما يفرِّق بينهما، وبروز كل ما يجمع بينهما ويوحِّد الجنس البشري كافة. [...]

يمكن الاطّلاع على الوثيقة الكاملة بالفرنسية فقط، وهي من تحرير الكاتب الفرنسي أندريه روسّو، في المحفوظات الرقمية لليونسكو، عن طريق الموقع الإلكتروني التالي:
www.unesco.org/new/unesco/resources/publications/unesdoc-database/

إضفاء طابع إنساني على العولمة

إن استخدام "القوة الابتكارية" للقانون لتبني نزعة إنسانية قانونية وجامعة ومنفتحة في مجالات مختلفة مثل تحقيق سلام دائم، أو مكافحة الاحترار المناخي أو إدارة التكنولوجيات الجديدة، سواء أكانت رقمية أو طبية بيولوجية، هو ما تدعو إليه، في عصر العولمة المنتصرة، أخصائية القانون ميري ديلماس ـ مارتي.

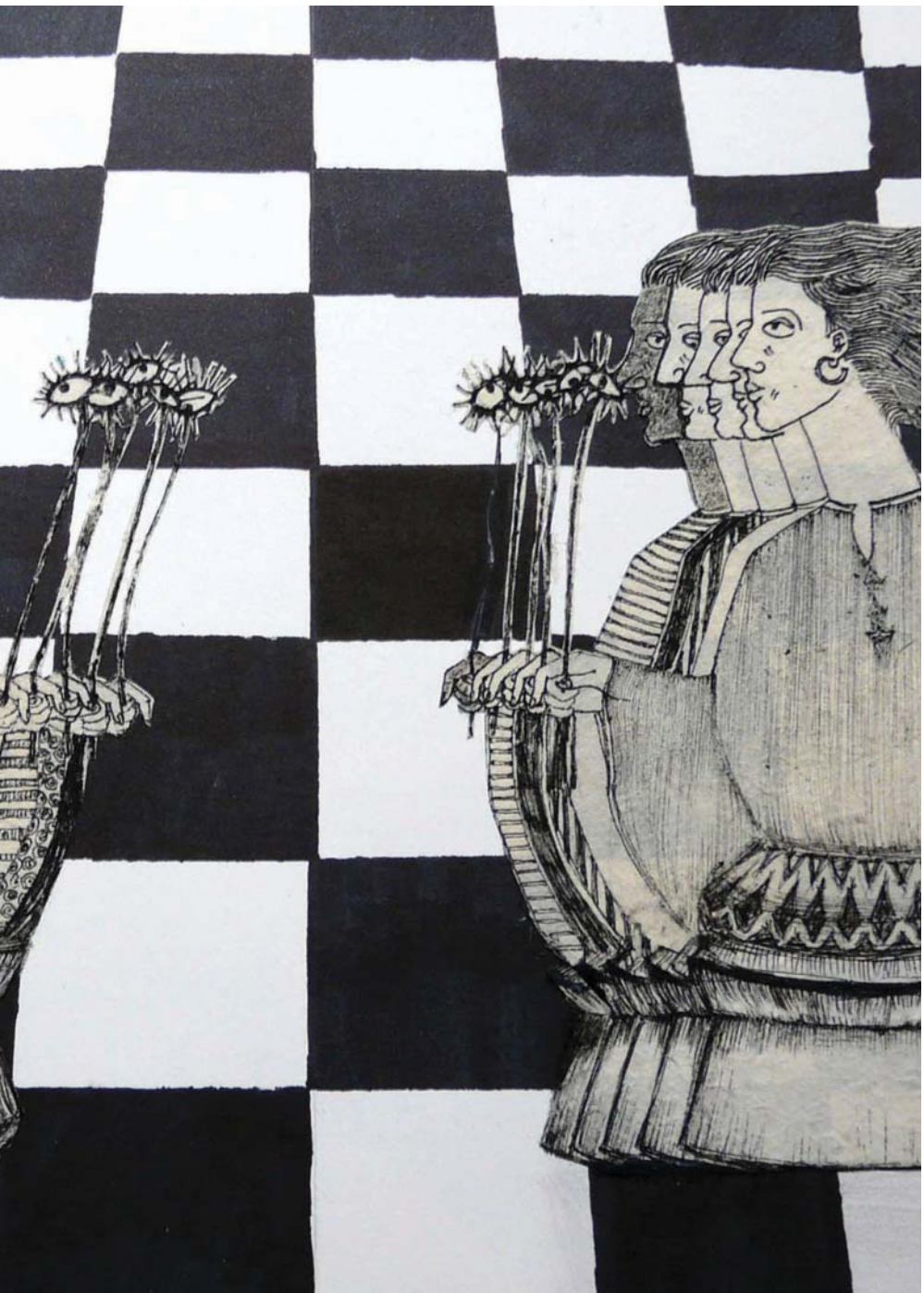

© نجاح زربوت

لوحة للفنان التشكيلي التونسي نجاح زربوت
http://najahzarbout.blogspot.com

ميري ديلماس ـ مارتي تجيب عن أسئلة ياسمينة شوبوفا

في مواجهة العولمة، هل عملية إضفاء طابع إنساني على النظم القانونية تحرز تقدماً أم أنها تراوح مكانها؟

تستند النزعة الإنسانية القانونية، فيما يبدو لأول وهلة، إلى ركائز قوية تتمثل في العديد من الوثائق القانونية والهيئات الدولية المنوط بها مراقبة احترام حقوق الإنسان، فضلاً عن إصدار القانون الدولي الإنساني وإقامة محاكم جنائية ذات طابع دولي. ومن الناحية الاقتصادية، فإن السوق العالمية تعمل على خلق فرص العمل وزيادة الرخاء.

فالظاهر إذن أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان... بيد أن العولمة، التي تُعتبر بمثابة عدسة مكبِّرة، تكشف عن سلسلة من التناقضات وتثير الكثير من التساؤلات منها: كيف يمكن التوفيق بين مفهوم الأمن ومبدأ الحرية؟ وكيف يمكن التوفيق بين الحقوق الاقتصادية وضرورة حماية البيئة؟ بل إن العولمة تزيد الأوضاع سوءاً عندما تفصل، على سبيل المثال، الحقوق الاقتصادية الخاضعة بالفعل للعولمة عن الحقوق الاجتماعية التي هي من اختصاص دول أضعفتها القيود التي تفرضها عليها الأسواق المالية. ويمكن أيضاً التساؤل عما إذا كان هناك تناقض بين النزعة العالمية التي يؤكدها

الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في عام ١٩٤٨ واتفاقية اليونسكو لعام ٢٠٠٥ بشأن حماية وتعزيز تنوع أشكال التعبير الثقافي، وهي الاتفاقية التي تعترف بالتنوع الثقافي كتراث مشترك للإنسانية.

كيف تظهر هذه التناقضات على أرض الواقع؟

إن أبرز هذه التناقضات يتجلى في مسألة الهجرة. فحدود شتى البلدان مفتوحة أمام البضائع ورؤوس الأموال، ولكنها مغلقة في وجه من يريد الهجرة من السكان. بل إن هذا الاتجاه يزداد تشدداً فيما يتعلق بالرقابة والقمع في عدد كبير من البلدان، إلى درجة أنه تم الخلط بين الهجرة والإجرام. ومن ثم، فإن هذه البلدان ذاتها، من خلال فتح حدودها أمام السوق العالمية، تخلّ بتوازن أسواقها المحلية وتحث سكانها على الرحيل. وعلى

الجملة، فإن الأطراف التي تعمل على تشجيع الهجرة هي نفسها التي تقمع هذه الظاهرة في الوقت عينه.

وعلاوة على ذلك، فإن الفصل بين الحقوق الاقتصادية والحقوق الاجتماعية من شأنه اختزال النمو في الفوائد الاقتصادية والمالية، دون القضاء على الأوضاع المتزايدة الهشاشة وأوجه الاستبعاد الاجتماعية، سواء فيما يتعلق بالبطالة أو بالفقر المدقع. كما أن التفاوت بين أعلى الدخول وأدناها يتزايد مع تزايد الرخاء.

وأخيراً، فإن استغلال الموارد الطبيعية، وهو ما يمثل قطاعاً تضطلع فيه الشركات المتعددة الجنسية بدور رائد، يؤدي إلى تزايد النزاعات المسلحة في العالم، ولاسيما في أفريقيا وفي أمريكا اللاتينية. وهكذا، تستمر جرائم الحرب، وجرائم الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية والاعتداءات الإجرامية، وذلك رغم إنشاء المحكمة الجنائية الدولية.[١] وصحيح أن هذه المحكمة باشرت مهامها منذ وقت قصير نسبياً (في عام ٢٠٠٢)، غير أن ذلك يعود إلى أسباب هيكلية: فالنظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية لا يشمل مسؤولية الأشخاص المعنويين[٢]، كما أن الشركات لا تخضع للعقاب إنْ خالفت القانون. ومن شأن هذا الوضع إضعاف الدور الرادع الذي تم النص عليه في النظام الأساسي (على خلاف المحاكم المنشأة لمعالجة موضوع معين[٣] والتي تنظر في الجرائم التي أُرتكبت بالفعل، تعقد المحكمة الجنائية الدولية جلساتها بصفة مستمرة).

ماذا عن التناقضات بين الحقوق الاقتصادية والحقوق المتعلقة بالبيئة؟

إن مقتضيات التنمية والقدرة التنافسية تثني الدول عن الانخراط في مجال حماية البيئة. فكيف، إذن، يمكن حماية كوكب الأرض ضد الآثار السلبية المترتبة على تغير المناخ أو تآكل التنوع البيولوجي أو تلوث المياه؟ وفي حين تشرط البلدان الصناعية لقبولها الانخراط في مجال حماية البيئة بالتزام البلدان النامية والبلدان الناشئة بالانخراط في هذا المجال، فإن تلك الأخيرة تتمسك بتطبيق الإنصاف التاريخي: فحيث أن البلدان الصناعية هي التي تسببت في تلوث كوكب الأرض، فيجب عليها الآن أن تشارك في الجهود الشاملة الرامية إلى صون البيئة، مع تمكين البلدان الأخرى من تحقيق التنمية. والمفروض أن تعبير «التنمية المستدامة» يعني التوافق بين الحقوق الاقتصادية والحقوق المتعلقة بالبيئة؛ غير أنه ما لم يشتمل هذا التعبير على مفهوم التنمية المنصفة، فإن الأمر سيتعلق بتوافق «وهمي».

ألا تُزيد التكنولوجيات الجديدة من التناقضات عندما تُغير الوضع الإنساني؟

تتسم التكنولوجيات دائماً بكونها «جديدة». أما ما تغير فهو وتيرة الابتكارات المتسارعة. ففيما يتعلق بالتكنولوجيات الرقمية على سبيل المثال، لا يتمكن القانون الفرنسي من مواكبة أحدث التطورات. فما أن يقر المجلس الدستوري الفرنسي قانوناً ما حتى تتغير الممارسات ولا تعد خاضعة للتشريع !

ومن الممكن أن تسهم تكنولوجيات المعلومات في تعزيز الديمقراطية، كما لوحظ ذلك مؤخراً في بعض البلدان العربية؛ ولكنها، تشجع، بالتوازي، إقامة مجتمع يخضع للرقابة.

ويزداد الالتباس بنفس الدرجة في مجال التكنولوجيات البيولوجية التي تتيح مكافحة العُقم باستخدام المساعدة الطبية على الإنجاب وباختيار الأجنة عن طريق التشخيص في مرحلة ما قبل التخصيب، وبذلك تشبه عملية تحسين النسل التي تُعتبر بمثابة جريمة.

إن تعميم مثل هذه الممارسات من شأنه الحد من اليانصيب الوراثي، ويقل بالتالي دور الصدفة والتنوع البيولوجي لأفراد الجنس البشري. وهنا يكمن هذا التناقض: فباسم الحريات الفردية (المتمثلة في حق الإنسان في امتلاك جسده ونسله)، تخاطر مجتمعاتنا بإثارة الرغبة في تحديد شكل نمطي للجنس البشري.

وثمة تناقض آخر يتمثل في أنه كلما اعتمدنا على التكنولوجيات الرقمية، أفضى ذلك إلى فقدان استقلالنا، في حين أننا نصنع آلات ذاتية التشغيل (روبوتات) تتسم بقدر متزايد من الاستقلال. ويمكن لهذه الآلات مساعدة كبار السن أو المرضى والإسهام في تحقيق الرفاهية الاجتماعية. بيد أنه تم استهلال برامج في الولايات المتحدة وفرنسا ترمي إلى صُنع آلات ذاتية التشغيل من شأنها أن تحل محل الجنود، ولخوض «حروب نظيفة» والوصول إلى الأهداف المرجوة منها دون المساس بالسكان المدنيين. وفي هذا الصدد، ينبغي أن ينطوي برنامج الآلة الذاتية التشغيل علي قواعد أخلاقية، وما يقترن بذلك من احتمال الوقوع في خطأ عند تفسير مثل هذا البرنامج. وتتسم الاختيارات الأخلاقية الأكثر أهمية بكونها بالغة التعقيد بحيث يتعذر التنبؤ مسبقاً، وعلى نحو دقيق كل

الدقة، بجميع الاحتمالات التي قد تنجم عن هذه الاختيارات.

تبين جميع هذه الأمثلة بوضوح عملية ترمي إلى عدم مراعاة الجوانب الإنسانية. فما الذي يمكن للقانون أن يفعله ؟

إن دور القانون صعب؛ فليس المقصود، في عالم يتغير بوتيرة سريعة، استعادة مفهوم ثابت يعني بالتحديد «نزعة إنسانية قانونية»، بل ينبغي وضع دينامية تتمثل في عمليات ترمي إلى مراعاة الجوانب الإنسانية. فبدلاً من إعادة تأكيد المبادئ، يجب، في مجال الممارسات، عكس الاتجاه نحو نبذ الطابع الإنساني. أما التطبيق الفعال لحقوق الإنسان فهو وحده الكفيل بتجنب انحرافات أنظمة الحكم الشمولية، وتفادي تحكّم الأسواق، ولاسيما الأسواق المالية.

ما هي الوسائل القانونية لتأكيد الجوانب الإنسانية؟

لا يوفر القانون استجابة لكل من التحديات التي ذكرتها. ولكن بعض العمليات القانونية الجارية توفر استجابات مبدئية من شأنها إضفاء طابع إنساني على العولمة. ومثال ذلك هو إنشاء مواطَنة ذات مستويات متعددة، مما يتمثل في عملية بطيئة وصعبة، ولكنها تستجيب لمشكلات الهجرة وللمشكلات المتعلقة بالبيئة. وصحيح أن المواطَنة العالمية تمثل حلماً يراود العقول منذ العصور القديمة. أما في العصر الحديث، فقد جالت بخاطر إيمانويل كانط فكرة تحقيق السلام الدائم بين الأمم،[٤] وكان ذلك في ألمانيا في نهاية القرن الثامن عشر حيث لم تكن قد توحدت بعد؛ وفي نهاية القرن التاسع عشر، دعا المفكر الإصلاحي الصيني كانغ يو وي[٥] إلى تحقيق السلام العالمي الشامل.

إن من الممكن تحقيق أفكار هذين المفكرين، كانط وكانغ، على نحو تدريجي. ومن الملاحظ بالفعل أن إنشاء مواطَنة أوروبية، دون المساس بمختلف الانتماءات الوطنية، يرمي إلى استكمال هذه الأفكار. وعلى الصعيد العالمي، يضع المنتدى العالمي المعني بالهجرة والتنمية[٦] بالتدريج نهجاً شاملاً من شأنه مراعاة الجوانب الإنسانية في الظروف التي تسودها القيود الاقتصادية. وربما تقرر بلدان الهجرة التصديق على اتفاقية الأمم المتحدة لحماية حقوق العمال المهاجرين (التي تم التوقيع عليها في عام ١٩٩٠ !)، يمكن ملاحظة الخطوط العامة الأولى للاعتراف ببعض الحقوق التي تعطي صورة مسبقة عن المواطَنة العالمية في المستقبل.

ومن خلال تطلعنا إلى المستقبل، فإننا ندرك، في مواجهة التحديات العالمية، ضرورة الاعتراف بالإنسانية بوصفها جماعة تتشاطر نفس المصير. بيد أن مجرد الرجوع إلى تاريخ الإنسانية، وهو ما يمكن لليونسكو الإسهام في إثباته ونشره، سيتيح إنشاء مواطَنة مشتركة بين الثقافات ـ وأقول «مشتركة بين الثقافات» وليس «مواطَنة متعددة الثقافات»، لأنه لا يكفي وضع عدة ثقافات جنباً إلى جنب، بل ينبغي توخي الهدف الطموح المتمثل في تبادل السمات الإنسانية.

هل من المستحيل تصور حوكمة عالمية تستند إلى مبادئ إنسانية؟

نعم، في الوقت الراهن، ما زال هذا الأمر يُعد ضرباً من المستحيل. فعوامل القوة المتعارضة التي تتقاسمها بعض الدول والشركات الكبرى المتعددة الجنسية تجعل من الصعب تماماً تنظيم حوكمة عالمية. وينبغي، عندما تُنتَهك حقوق الإنسان، التمكن في حدّ من يتولون السلطة على تحمّل مسؤولياتهم. وفيما يتعلق بالدول، فقد بدأ هذا الاتجاه في إطار مجلس أوروبا (بمقتضى الاتفاقية الأوروبية لحماية حقوق الإنسان وحرياته الأساسية والمحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان بستراسبورغ)، وفي أمريكا اللاتينية (لم تصدق الولايات المتحدة وكندا على اتفاقية حقوق الإنسان المبرمة بين الدول الأمريكية)، ومنذ عهد قريب في أفريقيا (وفق الميثاق الأفريقي لحقوق الإنسان والشعوب). وعوضاً عن محكمة عالمية لحقوق الإنسان، يجري إقامة آليات أقل إلزاماً، ولكنها تبقى غير كافية ومشتتة.

وماذا عن الشركات المتعددة الجنسية؟

تنحصر المسؤولية المسماة «اجتماعية» في عدد محدود من الأمكنة التي يسود فيها ما يُسمى «القانون الصارم»[٧] يحيط بها عدد كبير من الأمكنة التي يحكمها ما يُسمى «القانون الناعم» (أي المبادئ التوجيهية ومدونات السلوك، وغير ذلك). وعند ارتكاب انتهاكات خطيرة، فإن البلدان التي توجد فيها شركات متعددة الجنسية لا تملك الوسائل ولا الرغبة في مقاضاة مرتكبي هذه الانتهاكات، وذلك لأن ما تحرص عليه هو تجنب فقدان الوظائف. أما فيما يتعلق بالبلدان الأصلية لهذه الشركات، فنادراً ما تكون مختصة (وهي لا ترغب في ذلك) بمقاضاة من ارتكب انتهاكات في بلدان خارجية ضد ضحايا أجانب.

وصحيح أنه تم اللجوء خلال السنوات الأخيرة الماضية إلى قانون قديم جداً (Alien Tort Claims Act, ١٧٨٩) ـ الذي يبيح للسلطات القضائية الفيدرالية في الولايات المتحدة ملاحقة أي شخص ارتكب انتهاكات لحقوق الإنسان، حتى وإن تم ذلك في الخارج وضد أجانب ـ لمقاضاة شركات متعددة الجنسية. ولكن نادراً ما يتم تطبيق العقوبات.

غير أني لست من أنصار مبدأ «الاختصاص القضائي العالمي»، حيث أنه يجعل من القوى العظمى قضاة للعالم. وبدلاً من ذلك، وفي غياب محكمة عالمية، فإننا نحتاج إلى إبرام اتفاقية دولية تحيل الاختصاص القضائي، عند ارتكاب شركات متعددة الجنسية انتهاكات لحقوق الإنسان، إلى البلد الأصلي لهذه الشركات، وإذا لم يقاضي هذا البلد مرتكبي الانتهاكات تبيح لبلد المهجر الوسائل الكفيلة بالنظر في القضية (توفير الموارد البشرية والوسائل اللوجستية).

أليس يمكن للمحكمة الجنائية الدولية النظر في هذه القضايا؟

حتى إذا ما تم توسيع نطاق اختصاص هذه المحكمة ليشمل الأشخاص المعنويين، فإن الشركات المتعددة الجنسية لن تُلاحق قضائياً إلا إنْ ارتكبت الجرائم الأشد فظاعة، مثل جرائم الإبادة الجماعية، والجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب...وفي المقابل، يمكن لهذه المحكمة ملاحقة رئيس دولة وهو ما زال في السلطة، الأمر الذي يمثل ثورة سياسية وقانونية. ولسوء الحظ، فإن هذه المحكمة، بدون قوات شرطة تحت إمرتها،

لا تملك الوسائل الكفيلة بتنفيذ مذكرات التوقيف التي تصدرها. وفي الوقت الراهن، تلجأ المحكمة إلى تعاون الدول، وإلى القوات التابعة للأمم المتحدة وقوات حلف الأطلسي، وهو ما أفضى إلى نتائج غير كافية. أما مشكلة الترابط بين العدالة والقوة فما زالت في حاجة إلى التنظيم على المستوى العالمي.

وماذا عن الترابط بين العدالة والسلام؟

عادةً ما يسود الاعتقاد أن من غير الممكن تحقيق سلام دائم إن لم تتحقق العدالة أولاً. غير أن ثمة أمثلة، منها لجنة جنوب أفريقيا المعنية بموضوع «الحقيقة والتصالح»، تبين أنه من الممكن إحلال السلام دون الحاجة إلى محاكمة كل المجرمين، بل محاكمة هؤلاء الذي يرفضون الاعتراف بما اقترفوه من جرائم. ومن هذه الناحية، فلا شك أن من الواجب على العالم الغربي أن يسترشد بما تفعله أفريقيا لتجنب ما أسميه « الأصولية القانونية»، أي الانغلاق ونبذ تعدد التفسيرات، كما هو الشأن فيما يخص المعتقدات الدينية. وينبغي أن تأتلف مقتضيات العدالة مع الحاجة إلى إحلال السلام. أما رفض الإعفاء من العقاب فلا ينبغي أن يتخذ طابعاً مطلقاً.

ما هي برأيك مسؤوليتنا إزاء أجيال المستقبل، وهي المسؤولية المدرجة بالفعل في الميثاق الفرنسي للبيئة؟

تشير نصوص قانونية، منها على وجه الخصوص هذا الميثاق ذو الصفة الدستورية، إلى أجيال المستقبل. أما من الناحية العملية، فينبغي إعمال الرؤية بغية إدماج أجيال المستقبل في الإطار القانوني. وذلك لمعالجة مسائل منها على سبيل المثال: من يمثل مصالح هذه الأجيال؟ ما هو إطار المسؤولية وما هي مدة الاضطلاع بها؟ كيف يمكن تعويض الذين لم يولدوا بعد؟

إنني أتردد في استخدام تعبير«حقوق» أجيال المستقبل، أو تعبير«حقوق» الطبيعة أو الحيوانات، وذلك لانعدام إمكانيات التبادل في مثل هذه الأمور. بيد أن على الإنسان، بوصفه كائناً يتحلى بالمسؤولية، واجبات إزاء ذريته، وكذلك إزاء الكائنات الحية غير البشرية.

ومع ذلك، ينبغي توخي الحذر، لأن مفهوم «واجبات الإنسان» شكل، لوقت طويل، جزءاً من الخطاب الذي يجيز تعسف الدولة، في حين أن تعبير «حقوق الإنسان»، إنْ كان من الممكن الاحتجاج به في مواجهة سلطات الدولة، يتيح وضع حدود لحالات استغلال السلطة، و«تعديل» دواعي مصلحة الدولة العليا (أو التخفيف من غلوائها). وبالمقابل، وفيما يتعلق بالعلاقات التي لا تستند إلى التبادل)، ينبغي أيضاً الاعتراف بالواجبات. كما ينبغي تحقيق التوازن السليم، لأنه لا يصح أن تلغي واجباتنا إزاء أجيال المستقبل حقوق أجيال الحاضر.

تتعرض أجيال الحاضر والمستقبل للمخاطر الناجمة عن الابتكارات التكنولوجية التي اِعْتبرتِ أنها تدخل ضمن التحديات الواجب على الإنسانية الجديدة التصدي لها.

إن من المستحيل حظر استخدام جميع الابتكارات التكنولوجية. لأن من العبث القيام بذلك، حيث أن الإنسان إنما صار إنساناً بفضل تطوير هذه الابتكارات ونشرها على صعيد العالم، وفي كل العصور. فقد باتت العجلة والمنقلة والبوصلة وغيرها من الأدوات المستخدمة في جميع أرجاء العالم. غير أنه ينبغي ألا نعتبر أن كل ممكن يجب أن يكون مباحاً (وبما أن الابتكارات لا مفرّ منها، فمن العبث اعتراض سبيلها). ومن ثم، فإن من الضروري تكييف الاستجابات القانونية مع الابتكارات التكنولوجية.

ومع ذلك، يتعين إعادة هيكلة العلاقات بين الأطراف العلمية والأطراف السياسية، أي بين المعرفة والسلطة، لأن ثمة فجوة في الحوكمة العالمية. فالدول تدافع عن مصالح وطنية، في حين أن الشركات تدافع عن مصالح خاصة؛ وفيما عدا بعض المنظمات الدولية التي لا يتوافر لها كثير من وسائل العمل، فلا احد بات يهتم بالدفاع عن المصلحة العامة. إن الخبراء هم الذين يسدون هذه الفجوة. ومن حيث المبدأ، فإن هؤلاء لا يمكنهم اتخاذ القرارات؛ غير أنهم، من الناحية العملية، يقومون بدور رئيسي فيما يتعلق بالابتكارات العلمية وتطبيقاتها. وفي غياب الخبرات على الصعيد العالمي، فإن هناك آليات متفرقة من شأنها أن تضمن استقلالية وحيادية الخبراء بحيث يمكن تفادي تضارب المصالح.

"الحدود مفتوحة أمام السلع ورؤوس الأموال ، ولكنها مغلقة على البشر" ، كما تقول ميراي ديلماس، مارتي. وتتجلى هذه الفكرة في "قمة العالم الجديد"، من تركيب الفنان الكاميروني بارثليمي توغو.

© أورنت غولدشتاين/ المجموعة

---

١ أنشأت اتفاقية روما المعتمدة في ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٩٨ المحكمة الجنائية الدولية التي استهلت مهامها في تموز/ يوليو ٢٠٠٢. وتُعتبر هذه المحكمة أولى السلطات القضائية المنوط بها، وفق ديباجة اختصاصاتها، محاكمة "المسؤولين عن الجرائم التي لا يمكن تصورها وتهز ضمير الإنسانية بقوة".

٢ إن الشخص المعنوي هو كائن يختلف عن الشخص الطبيعي، ويتمتع بوضع قانوني يمنحه حقوقاً ويفرض على واجبات.

٣ المحكمة الجنائية الدولية الخاصة بيوغسلافيا السابقة التي أنشئت في عام ١٩٩٣، والمحكمة الجنائية الدولية الخاصة برواندا التي أُنشئت في عام ١٩٩٤.

٤ في نص صدر عام ١٧٩٥ تحت عنوان "Zum Ewigen Frieden" (نحو السلام الدائم)، لخص كانط المناقشات التي دارت في عصر التنوير بشأن السلام والفكرة الفيدرالية.

٥ Kang Youwei, Datong Shu, trad. L.G. Thompson, The one world Philosophy of K'ang Yu-wei, Londres, 1958.

٦ يتمثل المنتدى العالمي المعني بالهجرة والتنمية، الذي بدأ أعماله في بروكسل (بلجيكا) في عام ٢٠٠٧، في إطار لتبادل الممارسات والخبرات الرامية إلى تحديد الوسائل الكفيلة بالاستفادة على النحو الأفضل من حركات الهجرة الدولية لخدمة التنمية وللحد من آثارها السلبية.

٧ يعني تعبير «القانون الصارم» (hard law) الشكل التقليدي للقانون؛ أما تعبير «القانون الناعم» (soft law) فهو يعني قاعدة ليست لها قيمة قانونية ملزمة.

©ايمانويل مارشادور/Le Seuil

صورة لميري ديلماس ـ مارتي، للمصور ايمانويل مارشادور

مفهوم الثقافة الإنسانية يتطور مع مرور الزمن، مواكبا الاكتشافات العلمية والتطورات السياسية. وفي عصر الرقمنة، تكثُر بفضل التكنولوجيات الفرصُ لتهجين الثقافات، وحلول عهد الديمقراطية، وقيام ثقافة إنسانية عالمية.

ميلاد دويهي

ولكن لا يكفي تكييف القانون مع الممارسات الناجمة عن التكنولوجيات الجديدة، ولا استباق المخاطر المحتملة...

هذا صحيح. إن الأمر يقتضي أخذ عوامل الالتباس في الحسبان. فهناك آثار غير إنسانية تنجم عن هذه التكنولوجيات، مثل إقامة مجتمع خاضع للمراقبة، أو تحديد شكل نمطي للجنس البشري؛ وتلك أمور يتعين التصدي لها حتى لا تضيع مكتسبات الحركات الإنسانية بحجة أن العولمة قد تقضي على تاريخ كافة الشعوب.

ما هي مكونات هذه القيم الإنسانية المشتركة؟

إن هذه المكونات لا تنشأ دفعة واحدة. بل إنها تظهر بالتدريج عن طريق العوامل الإنسانية المتبادلة، وفي التفاعل بين الثقافات. وحتى مفهوم الكرامة الإنسانية، الذي تصورنا أنه تحدد بصفة نهائية، ما زال يحتاج إلى تعزيز، وخاصة فيما يتعلق بوضع المرأة.

ومع ذلك، فإن قائمة الجرائم التي تُرتكب ضد الإنسانية والنصوص التي تحرم التعذيب والمعاملات غير الإنسانية أو المهينة تُظهر ضمناً مكونات مشتركة للإنسانية، مثل تفرد كل كائن إنساني وانتمائه على قدم المساواة إلى المجتمع الإنساني. أما المخاطر الناجمة عن التكنولوجيات الجديدة فإنها تضيف مكوناً ثالثاً ألا وهو عامل الالتباس. فالإنسان لا يتحدد مسبقاً، وهذا هو ما يشكل نصيبه من الحرية والمسؤولية.

إن القانون يمكن أن يقوم بدور حقيقي بالرجوع إلى هذه المكونات الثلاثة: المقاومة والمسؤولية والاستباق. والمقاومة هي التصدي للعوامل غير الإنسانية؛ والمسؤولية هي حث من في يدهم سلطة شاملة على تحمل مسؤولياتهم؛ والاستباق إنما يخص المخاطر المحتملة. وتبرز خلال هذه المجالات أداة لحركة إنسانية جديدة لا يتم تحديدها كعقيدة ثابتة، وإنما كدينامية من شأنها أن تضفي طابعاً إنسانياً على كافة الممارسات.

ميري ديلماس ـ مارتي (من فرنسا)، أُنتخبَت في عام ٢٠٠٧ عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية؛ وتشغل منذ عام ٢٠٠٢ منصب أستاذ كرسي «الدراسات القانونية المقارنة وتدويل القانون» في «الكوليج دو فرانس»، حيث تتناول في محاضراتها المعنونة «Sens et non-sens de l'humanisme juridique» مسألة إضفاء طابع إنساني على النظم القانونية، وهي مسألة باتت ضرورية أكثر من أي وقت مضى. وقد وضعت ميري ديلماس ـ ميري عدة مؤلفات من بينها «Les forces imaginantes du droit (Seuil)»، وهو عمل ضخم يقع في عدة أجزاء هي: Le relatif et l'universel La refondation و pluralisme ordonné des pouvoirs، وأحدث جزء هو «Sens et non-sens de l'humanisme juridique»، الذي سيصدر في عام ٢٠١٢.

إن الطابع العالمي لبنى الاتصال وما اتُّفِق على تسميته بمجتمع المعلومات يدعوان أخصّائيَّ علم الإنسان إلى إعادة النظر، ولو جزئيا، في مفاهيم عمله ومقولاته الأساسية، أي: صيَغ المبادلات وأوجه نسج العلاقات الاجتماعية.

يرى ليفي- شتراوس [١٩٠٨_٢٠٠٩]، الأخصّائيُّ الفرنسي في علم الإنسان، أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) ليس فقط من التخصصات الإنسانية، بل أنها أيضا مآل النزعات الإنسانية التي طبعت تاريخ وتطور المجتمعات الغربية. فهو منذ عام ١٩٥٦، في ختام تحليلاته للعلاقات بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية، في وثيقة حررها من أجل اليونسكو، حدد ثلاث ثقافات إنسانية.

وهذه الثلاث هي: الثقافة الإنسانية التي ظهرت في عصر النهضة وارتكزت على اكتشاف الآداب القديمة؛ الثقافة الإنسانية الاغترابية التي صاحبت معرفة الثقافات المشرقية للشرق والشرق الأقصى؛ والثقافة الإنسانية الديمقراطية التي صاحبت علم الإنسان ورامت استيعاب كامل أنشطة المجتمعات البشرية.

يجدر بنا هنا الإشارة إلى أن هذه الثقافات الإنسانية الثلاث مرتبطة باكتشافات – اكتشاف إما نصوص وإما تقاليد شفوية وإما أشكال تعبير ثقافي – فتحت ميادين بحث جديدة أتاحت الفرصة لوضع طرائق نقدية جديدة، ومن ثَمَّ، لتكوين معارف جديدة.

©توماس اسرائيل

"التمويه" ، تثبيت الفيديو التفاعلي للفنان البلجيكي توماس إسرائيل. مدينة المعرفة، لييج، بلجيكا ٢٠١٠.
http://www.thomasisrael.be/

نحو ثقافة إنسانية رقمية

ففي حالة الثقافة الإنسانية التي عُرِفت في عصر النهضة، أسهمت معرفة اللغتين اليونانية واللاتينية، والمعارف التاريخية والنقد الداخلي في زعزعة السلطة القوية التي كانت تتمتع بها المؤسسة الكنسية. وفي حالة الثقافة الإنسانية الاغترابية، هيَّأ التلاقي بين الغرب والشرق الظروف لظهور عقلية المقارنة، ما أسفر عن قيام علوم جديدة وتخصصات جديدة كعلم اللغات، مثلا. وأما الثقافة الإنسانية التي توخّت الإحاطة بمجمل المجتمعات البشرية فقد أثمرت، فيما أثمرته، الطريقة البنيوية. وهذه مكنت، ليفي- شتراوس مثلا، من رصد العالم بمجمله واكتشاف ترتيب كامن وراء تنوع أشكال التنظيم الاجتماعي والتعبير الثقافي. وهذا الترتيب هو، في نظر أب البنيوية، سِمةُ الفكر البشري.

ويجدر بنا أيضا التذكير بأن هذه النزعات الإنسانية الثلاث توافق تطورات سياسية: في الحالة الأولى تطور أرستقراطي، لأنه انحصر في عدد صغير من المتمتعين بامتيازات؛ وفي الحالة الثانية تطور سياسي بُرجوازي، لأنه واكب التنمية الصناعية في الغرب؛ وفي الحالة الثالثة تطور ديمقراطي، لأنه لم يستبعد أحدا.

وهذا البعد العالمي هو الذي يدعوني إلى أن أقترح، بكل تواضع، ثقافة إنسانية رابعة، الثقافة الإنسانية الرقمية.

الثقافة الإنسانية الرابعة

جاءت الثقافة الإنسانية الرقمية حصيلة لتقارب، هو الأول في نوعه، بين تراثنا الثقافي المعقَّد وتقنية أصبحت ملتقىً لحسن تعاشر لم يسبق له مثيل. وهذا التقارب هو الأول من نوعه بمعنى أنه يعيد توزيع المفاهيم والأشياء، وكذلك الممارسات المصاحبة لها، في بيئة افتراضية.

وعلى غرار الثقافات الإنسانية الثلاث التي حددها ليفي- شتراوس، ترتبط الثقافة الإنسانية الرقمية باكتشاف عظيم، فتح مجالات كثيرة أمام البحث: إنه اكتشاف التكنولوجيات الجديدة الآخذة في زعزعة المقولات الاجتماعية الثقافية الراسخة.

إن الرقمي، على الرغم من مكوِّناته التقنية والاقتصادية، التي يجب وضعها دوما موضع التساؤل ومراقبتها، يوشك أن يصير ثقافة بمعنى أنه يتميَّز بمنحى تغييره نظرتَنا إلى الأشياء والعلاقات والقيم، وأنه يفتح ميدان النشاط البشري على آفاق جديدة.

فمنذ ظهور التكنولوجيات الرقمية، ما انفكّت ممارسات ثقافية كالكتابة والقراءة والاتصال، مثلا، تخضع لتحوُّلات. إذ إن التكنولوجيا، كما سبق أن أشار إليه مارسيل موسّ [١٨٧٢-١٩٥٠] الأخصّائيّ في علم الإنسان، تؤدّي دورا حاسما، على اعتبار أن النفاذ إلى الأدوات التقنية لا يغيّر فقط سلوك الأفراد، بل يغيّر أيضا كل البيئة الثقافية.

والدور الذي تؤديه التكنولوجيات الرقمية حاسم بمقدار تغييرها مقولتي المكان والزمان تغييرا يسهِّل التلاقي بين الثقافات وتهجينها: بفضل زوال الحدود، والمسافات الجغرافية، وبفضل آنية الاتصال، وغير ذلك.

أجَلْ، لا يمكن إغفال المحدودية: فقد صُمّمت التكنولوجيات الرقمية وفقا لنماذج اجتماعية ثقافية غربية بأغلبيتها، فلم تتوصّل إلى تخطّي الحواجز اللغوية، وليست في مأمن من الاستعمالات التعسّفية. ثم إن توزيعها على سطح كوكبنا ليس منصفا، وهذا من شأنه الإسهام في تفاقم الفوارق بين الأغنياء والفقراء.

إلا أنه، على الرغم من ذلك، أصبحت التكنولوجيات الرقمية واقعا عالميا، وسيلة اتصال عالمية، لا بل أداة للتحول الديمقراطي، كما شهدناه في مطلع عام ٢٠١١ مع ما يُعرَف بتسمية «الربيع العربي».

ألا إن فضاء الثقافة الرقمية الهجين يشكّل منحى جديدا، في تكوين مجتمع له أساطيره، وإنجازاته الأولى من نوعها، ونظرياته الطوباوية. إنه يترجم إلى واقع ملموس حلم القرية العالمية. فالثقافة الرقمية هي منحى في تصوّر عقلي لهذا الواقع الجديد.

ميلاد دويهي (الولايات المتحدة) مؤرِّخ للأديان وأستاذ أصيل له كرسي البحث في الثقافات الرقمية، بجامعة لافال (كيبك). نخصّ بالذكر من بين مؤلفاته: La Grande conversion numérique (التحول الرقمي الكبير) (من منشورات دار Seuil في ٢٠٠٨ و ٢٠١١) و Pour un humanisme numérique (من أجل ثقافة إنسانية رقمية) (من منشورات دار Seuil في ٢٠١١).

مرحباً في عصر "الأنثروبوسين"

منذ قيام الثورة الصناعية، حررت التكنولوجيات الحديثة الإنسان من الأغلال التي ربطته بالطبيعة. غير أن أسطورة التقدم قد تفضي إلى نهاية مأساوية. فظاهرة تغير المناخ تنذرنا بأنه آن الأوان أن نكف عن التصرف وكأننا غرباء في الحظيرة الإيكولوجية التي نعيش فيها.

روث ايروين

يُفضي تدهور النظام الإيكولوجي الأرضي، والمجاعات الناجمة عن سوء إدارة النظم الاقتصادية، والحروب التي تنشب بسبب الذهب أو البترول أو الماس إلى كوارث تؤثر أسوأ تأثير على العالم. ويُضاف إلى ذلك شبح كارثة إيكولوجية وشيكة الوقوع أو حرب نووية عالمية قد تندلع، وهو الأمر الذي يهيمن على الخطابات الكوارثية التي باتت من السمات الشائعة في عصرنا هذا.

لقد اختفت حضارات كثيرة من على سطح الأرض. وقد تلقى حضارتنا نفس المصير. وذلك لأن الاحترار العالمي، شأنه شأن الشتاء النووي، هو من الكوارث التي قد تكون وخيمة العواقب للبشرية جمعاء.

وخلافاً للشتاء النووي، فإن الأسباب المؤدية إلى الاحترار المناخي لم يتم تحديدها على نحو واضح. ومع ذلك، فإن أغلب العلميين لديهم «قناعة تامة» بأن العديد من مليارات الأطنان من غاز ثاني أكسيد الكربون التي يلقيها الناس في الطبقة الجوية السفلى منذ ما لا يقل عن ١٥٠ سنة هي التي تفضي إلى اشتداد حرارة كوكب الأرض.

إن النشاط الذي يقوم به هذا الفرد أو ذاك لا يفضي في حد ذاته إلى حدوث تغير في المناخ، ولا يمكن لكائن من كان، حتى وإن كان رئيس دولة، أن يضع حداً للتكنولوجيات الصناعية التي تحكم الحياة الحديثة. وعلى نطاق واسع، فإن سلوكنا كمستهلكين يمكن، رغم ذلك، أن يعدّل الطريقة التي تتبعها المجتمعات في إنتاج السلع والخدمات، كما يمكن أن يكون لهذا السلوك تأثير في تغير المناخ. ويتعين أن تتطور عقلية المستهلك ذاتها حتى يمكن التصدي لهذا الوضع.

ورغم ذلك، فلئن أراد الأفراد اتخاذ نمط للحياة يحترم البيئة، فإنهم يدركون أن من الصعب بمكان الخضوع لهذه القاعدة في مجتمع لا يكاد يُتخذ فيه أي إجراء للحد من التأثير الإيكولوجي الذي تخلفه ظاهرة تغير المناخ. وكيف نتنقل سيراً على الأقدام في مدن ضخمة تسودها فوضى العالم الجديد أو في الضواحي المتشعبة التي لا تضم سوى أعداد قليلة من المساكن؟ أما في الأماكن التي لا تتوافر فيها مواصلات عامة تم تنظيمها بصورة فعالة، فإن السيارة تبقى الوسيلة الرئيسية للمواصلات.

ومن ثم يتعين على صانعي السياسات أن يتخذوا القرارات السليمة. بيد أننا نلاحظ غياب القيادات السياسية على المستوى الدولي، وهو المستوى الذي يتحدد فيه مصيرنا. والدليل على ذلك هو ما يحدث سنوياً أثناء انعقاد المؤتمرات الدولية المعنية بتغير المناخ منذ عام ١٩٩٥: فليس في وسع القادة المشاركين في هذه المؤتمرات التشكيك في المعايير التكنولوجية السائدة في مجتمعاتنا الحديثة.

واني أرى أنه يجب التقصي عن أسباب حالة الجمود هذه فيما يتجاوز القضايا القانونية أو القضايا الأخلاقية التقليدية. فالواقع أن التكنولوجيا الحديثة والاقتصاد العالمي معاً – وكثير منا يذهب إلى أن هذين العاملين يطرحان العديد من الإشكاليات – يشكلان عقدة حضارتنا. ونحن نعتقد أن حلّ هذه العقدة إنما يمثل عقبة لا تذلل: فذلك يعني أنه يتعين تغيير الحضارة، والدخول في عصر جديد ! غير أن الجمعية الملكية [في المملكة المتحدة] ترى أننا قد فعلنا ذلك بالفعل. ففي عام ٢٠١٠، اعترفت هذه المؤسسة العلمية الشهيرة، في إعلان رسمي، بالانتقال من العصر الكلي الأخير (الهولوسين) إلى العصر الجيولوجي البشري (الأنثروبوسين).

منظر لمابوتو، موزامبيق.

وهكذا فإننا انتقلنا من عصر جيولوجي معتدل، دام لفترة بلغت ١٠٠٠٠ سنة تطورت خلالها الحضارات الزراعية والحضرية، إلى عصر يشهد تطورات عارمة قد تكتسب طابعاً كارثياً، وهو أول عصر يتحكم فيه الإنسان («أنثروبوس» في اللغة اليونانية القديمة).

ويمكن القول إن هذا الانتقال قد حدث ابتداءً من عام ١٩٤٥ (توليد الطاقة النووية)؛ ولكن من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث قبل هذا التاريخ بفترة طويلة، خلال الثورة الصناعية في نهاية القرن الثامن عشر، وهي الثورة التي

١ "الأنثربولوسين"، أو العصر الجيولوجي البشري، هو عصر جديد أضافه الجيولوجيون إلى الجدول الزمني العالمي.

٢ Changements climatiques ٢٠٠٧ . تقرير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ (Rapport du GIEC).

٣ يقيس التأثير الإيكولوجي السطح الأرضي اللازم للاستجابة لاحتياجات شخص (السكان) وفق نمط حياته: الاستهلاك في مقابل التجديد.

٤ اللودّية هي حركة عمالية قامت في بداية القرن التاسع عشر في انجلترا بقيادة نيد لودّ. وكان الغرض منها هو تحطيم الآلات بطريقة شاملة على اعتبار أنها السبب الرئيسي للبطالة.

©ألفريدو دامانو/صور بانوس

غيّرت تغييراً جذرياً علاقات الإنسان بالنظام الإيكولوجي الذي يتطور في كنفه.

انقطاع الصلات بين الإنسان والطبيعة

الواقع أن التكنولوجيات الحديثة خلصتنا من الوعي الإيكولوجي. فقد وجد الإنسان نفسه وقد تحرر من القيود التي كانت تربطه بالطبيعة. وبفضل التقدم التكنولوجي، باتت المدن الكبرى بمنأى عن المجاعات التي شهدتها فيما مضى بسبب سوء المحاصيل الزراعية وقلتها. ولم تعد هذه المدن في حاجة إلى الاعتماد على المناطق الزراعية المحيطة بها. وقد تتعرض تلك الأخيرة لحالات الجفاف أو الفيضانات من دون أن يعلم سكان المدن شيئاً عما حدث. وكم من السكان يعرفون من أين تتزود مدينتهم بالمياه، أو ما هي حالة الغابات المجاورة؟ يُضاف إلى ذلك أن تطوير المواصلات ووسائل التخزين أفضى إلى تعزيز نوع من التجارة الدولية التي أبعدتنا عن نمط استهلاكي موسمي، وعدّلت في الوقت عينه الصلات بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية. وتكتسب المدن من الأهمية بحيث لا تكف عن مد حدودها على حساب المناطق الريفية واستيعاب الهجرات السكانية الكثيفة. وغالباً ما يتم إنشاء المدن وفقاً للمقتضيات التكنولوجية والاقتصادية، وليس لاعتبارات الاحتياجات العامة.

لقد تغيرت تغييراً جذرياً جميع الأنشطة الإنسانية، ومن بينها تشكيل المدن التي نعيش فيها، والزراعة، والتعدين، وإنتاج الطاقة، والحراجة، والصيد، والتجارة، وذلك في فترة من الزمن تقل عن قرن ونصف، مما أفضى إلى تغيير وجه العالم.

أما ارتباط حياتنا بتطور الابتكارات التكنولوجية، وخضوعنا منذ الآن لمقتضياتها، فقد جعلانا نغير نظرتنا إلى ذواتنا باعتبارنا أفراداً وكيانات بشرية. كما أن نظرتنا إلى العالم ضاقت وابتعدت عن موضوعها.

العولمة باعتبارها إيكولوجيا جديدة

صحيح أن المشاركة المدنية الرامية إلى المحافظة على سلامة كوكب الأرض لا تُمثل تطوراً جديداً. غير أن تأثيرها على معايير الحياة الحديثة كان محدوداً. والأخلاق الفردية لا وزن لها في مواجهة التقدم الهائل. أما الجديد فهو الوعي الجماعي بالتأثير الإيكولوجي الضخم للعالم الحديث وما قد يحدثه من أضرار في مستقبل الإنسانية.

إن عصر الأنثربوسين قد يكون أحد عصور حالات الانقراض الكبرى التي سبق لكوكب الأرض أن شاهدها، مثل العصر الذي انقرضت خلاله تماماً الديناصورات قبل ٦٥ مليون سنة. وعلى نحو غير مسبوق، فإن تغير المناخ يسلط الأضواء على حدود قدراتنا. ونحن نرى بمزيد من الوضوح أن التغييرات الجذرية لا مفر منها.

وفي الوقت الحاضر، فإن هذه التغييرات لم تحدث بعد. فالنظم الدولية المتعلقة بتبادل حصص انبعاث الغازات الدفيئة تدل على أننا لا نأخذ في الاعتبار حتى الآن مدى ضخامة الحقائق الإيكولوجية.

إنني لا أدعو إلى الأخذ بلودّية جديدة. بل إني أقول إنه لم يعد في مقدورنا التصرف كغرباء في البيت الذي نعيش فيه. إن الحداثة تتسم بطابع عالمي، كما أن حظيرتنا الإيكولوجية خضعت بدورها للعولمة. ولقد انقضى العصر الذي كان الإنسان يتطلع فيه إلى حياة مثالية، مطلقاً العنان لخياله. والظروف الإيكولوجية الراهنة تجعلنا نتخلى عن أحلامنا الوردية وتدفع بنا إلى واقع أشد قسوة وتقتضي أن تجري أنشطتنا التكنولوجية والاقتصادية وفقاً لها.

وينبغي أن يفضي الوعي بإيكولوجيا عالمية الذي يثيره لدينا تغير المناخ إلى تغيير الزاوية المعيارية التي ندرك العالم من خلالها. فنحن لا نستطيع تغيير أي شيء في غياب قرارات سياسية حاسمة على المستوى الدولي. كما يجب اعتبار العولمة بمثابة إيكولوجيا جديدة.

روث ايروين تشغل منصب أستاذ مساعد في الأخلاقيات بجامعة التكنولوجيا، أوكلاند (نيوزيلندا). وقد نشرت كتاباً تحت عنوان Heidgger, Politcs and Climate :Risking It All Change. كما أنها أشرفت على إصدار مؤلف جماعي تحت عنوان Climate Change and Philosophy : Transformational Possibilities وقد أصدرت دار النشر Continuum Editions (لندن) هذين المؤلفين في عام ٢٠٠٨ وعام ٢٠١٠.

بين الحلم والعلم

لا يزال العلم، بما يضفيه من قدرة هائلة على من ينتجونه ويستغلون آثاره على الواقع، يبعث الأمل في تخطيط وتنظيم ارتقاء الإنسانية إلى مرحلة أعلى. وغالباً ما يفضي ذلك إلى انحرافات خطيرة...

ميشال ماير

ما أن فرّ الوحش الخرافي الذي خلقه فيكتور فرانكنشتاين من المختبر حتى أصابه جنون مميت ومدمّر. ومع ذلك، فإن هذا الكائن قادر على فعل الخير: فقد أنقذ من الشقاء أسرة تعيسة، مدفوعاً بما يجيش في نفسه من مشاعر المودة والمحبة.

إن الرواية المشهورة التي ألفتها ماري شيلي تصف، في جزء منها على الأقل، سلوكاً يخلو من المسؤولية. وذلك لأن فرانكنشتاين، العالِم، يحلم « بنشر فيض من الأنوار على العالم المظلم»، ولكنه يتملص من أية مسؤولية أخلاقية تجاه الكائن الوحشي الذي تركه وشأنه، آملاً أن ينسى ما تفتق عنه ذهنه. وقد أفضى هذا الموضوع إلى ابتداع عدد كبير من الشخصيات السينمائية التي تمثل علماء مجانين يسعون لامتلاك القدرة على عمل أي شيء دون تحمل مسؤولية ما يفعلونه.

إن العلم، شأنه شأن التكنولوجيا، يمنح سلطة فعالة تؤثر على العالم، ويتزايد تأثيرها على «الأنا» البيولوجية التي ننتمي إليها. ويرمي التأليف بين العلم والنزعة الإنسانية إلى أن يؤدي العلم دوراً في تحسين الإنسانية. ومع ذلك، فغالباً ما يغيب عن الأذهان أن اللجوء إلى العلم على أمل تحسين العالم إنما يمثل مشروعاً قديماً قِدم العلم نفسه. كما أن استخدام العلم في الوقت الراهن يطرح تساؤلات تتعلق بالدلالات والقيم والمسؤوليات.

العلم وتعريف ما هو الإنساني

فلنأخذ مثال حركة الارتقاء بالإنسانية التي تهتم بتحسين الأفراد أكثر من اهتمامها بالتقدم الاجتماعي. إن هذه الحركة تستند، بتركيزها على المستقبل، إلى تكنولوجيات هي من الجدة بحيث تبقى حبيسة صفحات روايات الخيال العلمي. أما الهدف النهائي لهذه الحركة فهو يتمثل في تجاوز الحدود البيولوجية للإنسان من أجل تحقيق الخلود بوسائل تكنولوجية. وعلى الرغم من أن هذه الحركة نشأت ابتداءً من الإلكترونيات التي انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية والتكنولوجيات النانومترية والهندسة الوراثية، فإنها تسعى إلى الخوض في البحوث الرامية إلى اكتشاف حجر الفلاسفة الذي من شأنه منح ما يشبه الخلود والذي ظن الكيمائيون القدماء أن في مقدورهم التوصل إليه.

وتجدر الإشارة إلى أن حركة الارتقاء بالإنسانية تبدأ من الواقع الأكثر حداثة حتى تصل إلى خيالات مستقبلية، ومن العلاج عن طريق الخلايا الجذعية إلى تحميل ما يحويه الضمير الإنساني من مشاعر على أجهزة الإنترنت، ثم تتحول إلى أفكار دينية متعددة العناصر تتسم بالغرابة. ويعطي أحد مناصري هذه الحركة، وهو المفكر البريطاني ماكس مور، تعريفاً لها مفاده أنها تتمثل في مفهوم مُوحِّد يشير إلى تيار فكري ينبذ جوانب النقص التي يرثها الإنسان وتشمل، فيما تشمل، المرض والموت.

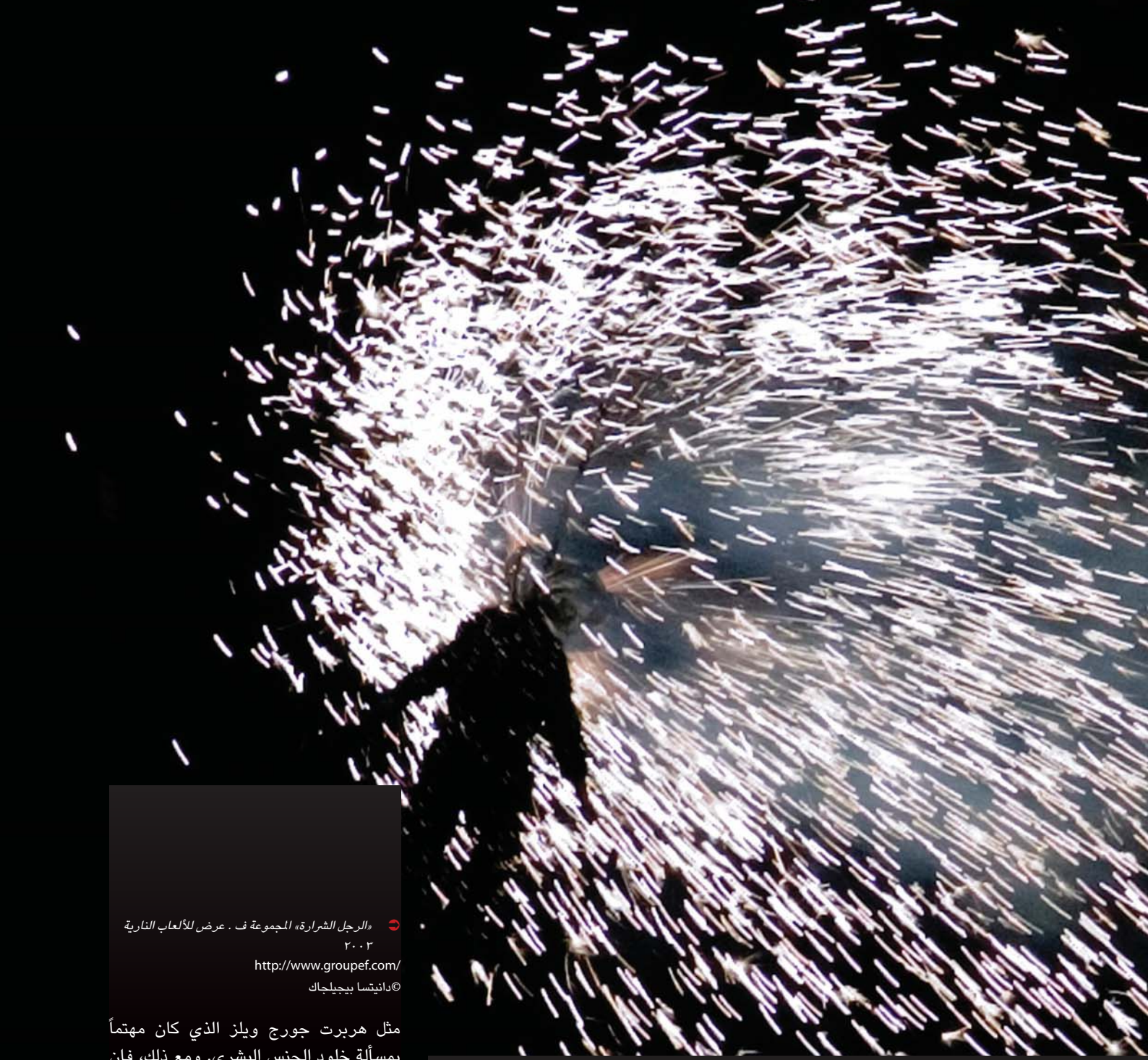

«الرجل الشرارة» المجموعة ف . عرض للألعاب النارية
٢٠٠٣
http://www.groupef.com/
©دانيتسا بيجيلجاك

ومن الممكن إعطاء أمثلة أخرى أكثر قِدماً أتاحت للعلم أيضاً تعريف الكائن البشري, ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، رسمت روايات الاستباق التي ألفها جول فيرن علماً تقدمياً إلى أقصى حد من شأنه إتاحة رحلات لغواصات في أعماق البحار وإطلاق سفن فضائية إلى القمر. وهكذا فإن العلم يسحر الألباب ويؤكد الإيمان بتحقيق التقدم الإنساني من الناحيتين المعنوية والمادية على السواء. ومع ذلك، فإن نهاية القرن التاسع عشر أزاحت الستار عن جوانب علمية كئيبة كل الكآبة. ففي الولايات المتحدة ظهرت مخاوف ثقافية، بسبب تسارع وتيرة حركات الهجرة وانتشار مدن صارت بمثابة بؤر للفساد والانحطاط، وهي مخاوف واكبت المعارف العلمية السائدة آنذاك والتي أفضت إلى نشوء حركة تحسين النسل.

وقد تمثل الهدف الذي سعى إلى تحقيقه مناصرو حركة تحسين النسل في تطبيق العلوم في مجال تحسين «الماشية» البشرية. وبلغ هذه الحلم أوجه وعمل على تحقيقه عدد من كبار مناصري النزعة الإنسانية العلميين مثل هربرت جورج ويلز الذي كان مهتماً بمسألة خلود الجنس البشري. ومع ذلك، فإن بعض الجهود الرامية إلى تطهير الإنسان من خصائصه «السلبية» تمثلت في أساليب تعامل الإنسان كما تعامل الماشية. وغالباً ما اتسمت حركة تحسين النسل، في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، بكونها فكراً طبقياً ومميزاً من شأنه الارتقاء بيولوجياً بالطبقات

١ "فرانكنشتاين، أو بروميثيوس الحديث": عنوان أشهر أعمال الروائية البريطانية ماري شيلي (١٧٧٩ـ ١٨٥١) الذي صدر عام ١٨١٨.

٢ جول فيرن [١٨٢٨ـ ١٩٠٥] كاتب فرنسي له عدة مؤلفات منها "رحلة إلى مركز الأرض" (١٨٦٤) و"من الأرض إلى القمر" (١٨٦٥) و"عشرون فرسخ تحت البحار" (١٨٧٠) و "حول العالم في ثمانين يوماً" (١٨٧٣).

٣ هربرت جورج ويلز [١٨٦٦ـ ١٩٤٦] كاتب بريطاني من مؤسسي أدب الخيال العلمي له عدة مؤلفات منها "آلة الزمن" (١٨٩٥) و "الرجل الخفي" (١٨٩٧) و"حرب العوالم" (١٨٩٨).

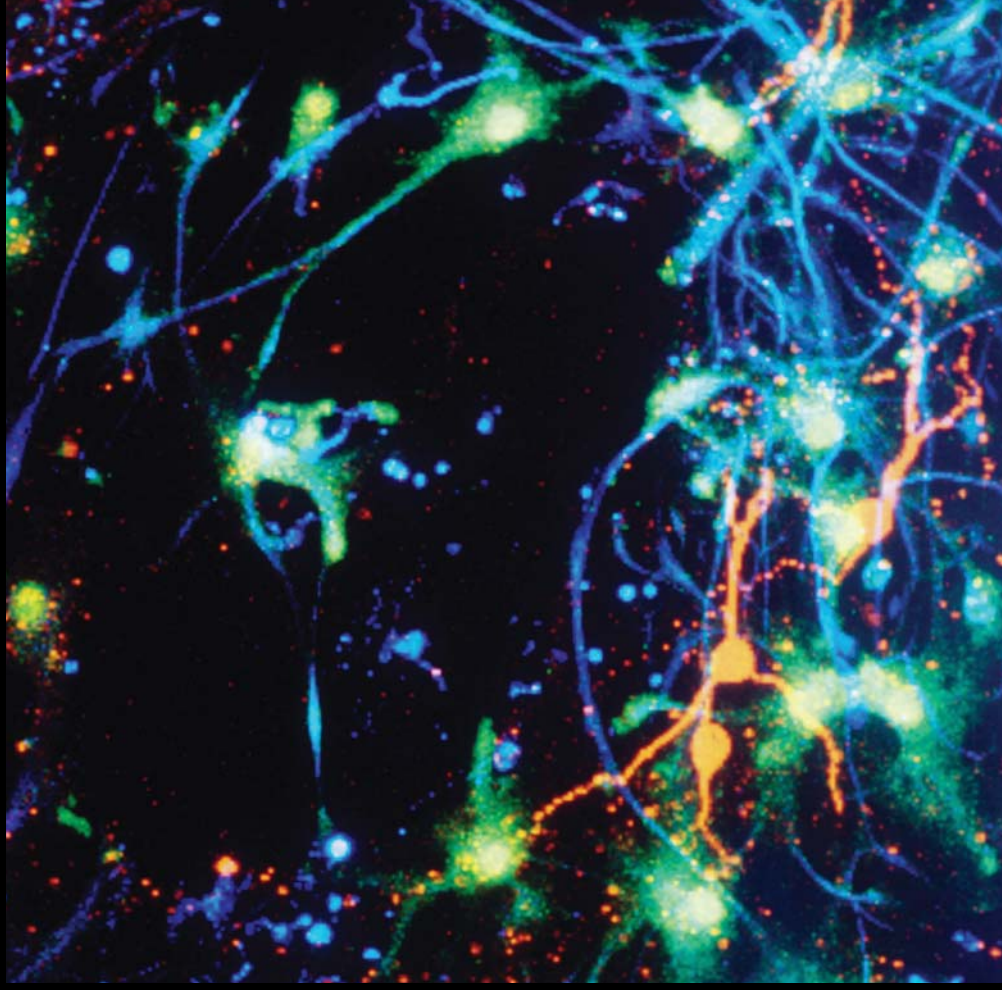

©فيليب بليلي/يورليوس/LookatSciences

الفحص المجهري للخلايا الجذعية، الذي أحرز في عام ٢٠٠١ من قبل مختبر البيولوجيا الجزيئية في جينيثون ايفري، جرينوبل، فرنسا.

اللجوء إلى العلم على أمل تحسين العالم إنما يمثل مشروعاً قديماً قِدم العلم نفسه

الاجتماعية المتوسطة والعليا حتى تتجاوز الطبقات الأخرى.

صفات العالِم الحقيقي

اتخذ فريق آخر من مناصري النزعة الإنسانية العلميين، مثل جورج سارتون أساليب أقل ضرراً مع أنها ظلت متسمة بطابع نخبوي. ففي مقالته المنشورة تحت عنوان «النزعة الإنسانية الجديدة» في مجلة «Scientia» عام ١٩١٨، يشير سارتون إلى أن العلم إنما هو ثمرة تعاون دولي لا حدود زمنية له، ويتمثل في وحدة فريدة ومنظمة، ويشكل كنزاً مشتركاً لجميع الشعوب والأجناس، إذ أنه، في الحقيقة، هو التراث الوحيد الذي يحق لها امتلاكه. ويذهب سارتون إلى أن ما تقصده الإنسانية في حقيقة الأمر إنما يكمن في خلق قيم جديدة، على أن تكون قيماً فكرية، من شأنها أن تكشف النقاب بالتدريج عن التناغم القائم في الطبيعة وتطور الفن والعلم وتنظيمهما. وهكذا يتميز العلم، مرة أخرى، بما له من عميق التأثير على القيم والدلالات.

وفي عام ١٩٤٣، قدم مناصر أمريكي آخر للنزعة العالمية، هو موريس غوران، وصفاً في «مجلة التعليم العالي» (Journal of Higher Education) للعالِم الحقيقي. واتسم هذا الوصف بطابع سياسي خيالي مفاده أن « العالِم الحقيقي ينتمي، على الدوام، إلى الإنسانية، ويسعى لتحقيق القيم الإنسانية، ويواصل توخي الحذر إزاء الانحرافات، ويحمي المجتمع من الطغيان والتعصب والاستبداد [...]. وإذا ما هدد علماء العالم بعدم إطاعة أوامر الطغاة، ولو بصفة مؤقتة، فإن ذلك من شأنه إيجاد حلول سلمية دائمة للمشكلات التي يواجهها العالم». ويجعل هذا الرأي من العالِم حاكماً فيلسوفاً يستمد قوته وسلطته المعنوية من معارفه العلمية.

وفي سبعينات القرن الماضي، تصادمت النزعة الإنسانية مع العلم في مجال علم الاجتماع البيولوجي الذي يبين أن كثيراً من السلوكيات الاجتماعية تخضع لآليات وراثية ولمبدأ الانتخاب الطبيعي الذي يخص الإنسان والحيوان على السواء. وأثبتت أشكال مفرطة للحتمية الوراثية أن الوضع الحالي للمجتمع إنما هو انعكاس للبيولوجيا. كما أن المجتمع كان يُعتبر بمثابة مرآة للعلم السائد آنذاك. أما اللجوء إلى الحتمية الوراثية لتفسير الميول العدوانية لدى الذكور أو خضوع المرأة أو مؤشرات الأداء المتوسطة للأفارقة الأمريكيين في اختبارات حاصل الذكاء، فإنه قد يدل على استمرار وجود مؤشرات لعدم المساواة والنقص. وقد خاض الاختصاصي الأمريكي في علم الإحاثة والبيولوجيا وعلم التطور ستيفن جاي جولد معركة علمية ضد مناصري المذهب الحتمي ونشر مؤلفات تبسيطية منها مؤلف يحمل عنوان «La Mal-mesure de l'homme» (١٩٨١). ويرى جولد أن الناس يمتلكون تراثاً جينياً مشتركاً ينطوي على اختلافات اجتماعية ثقافية عميقة.

أما جورج بيركنز مارش، الذي كان أول من ندد بتأثير الضغط البشري على الوسط الطبيعي ابتداءً من القرن التاسع عشر، فقد أنذر بأن العلم والتكنولوجيا قد يكون من شأنهما إيجاد حلول للمشكلات التي يسببها الإنسان، ولكن هذه الحلول قد تفضي إلى مشكلات جديدة. ويقتضي الأمر في المستقبل تحقيق التآزر بين العلم والنزعة الإنسانية، وعلينا أن نستخلص الدروس من أخطائنا السابقة. إننا لا يسعنا الانتظار حتى يوفر لنا العلم استجابات نهائية لاحتياجاتنا. فالعلم هو من ابتكارات الإنسان ويشهد تطوراً جيلاً بعد جيل. كما أنه ليس من الممكن أن يدلنا العلم على ما يجب أن نكون، ولا أن يبين لنا ما تعنيه كلمة «خيْر». ولذلك ينبغي أن تكون المسؤولية والسلوك الأخلاقي في صدارة اختيارتنا.

ميشال ماير، المولودة في إسرائيل، عملت راصدة جوية في نيوزيلندا وفيجي، ثم صحافية في بلدها الأصلي. وقد حصلت على درجة الدكتوراه في تاريخ العلوم وتعمل منذ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩ موظفة في مؤسسة التراث الكيميائي وتقوم بإدارة المجلة التي تصدرها هذه المؤسسة تحت عنوان «كيميكال هيريتيتج» (التراث الكيميائي).

www.chemheritage.org/dicover/magazine/index.aspx

٤ جورج سارتون، أمريكي من أصل بلجيكي، يُعتبر مؤسس علم تاريخ العلوم وله عدة مؤلفات منها "مقدمة لتاريخ العلوم"، وهو عمل عملاق صدر في ثلاثة مجلدات (١٩٢٧ـ١٩٤٨) عن دار النشر Williams & Wikins.

٥ النشرة الفرنسية: دار نشر Odile Jacob، ١٩٩٧.

٦ جورج بيركنز مارش [١٨٠١ـ ١٨٨٢] دبلوماسي وفقيه لغوي أمريكي.

أخلاقيات البيولوجيا
حصن الإنسانية المنيع

سلفادور بيرغيل

في مواجهة التقدم المحرز في العلوم والتكنولوجيات البيولوجية، تتمثل مهمة أخلاقيات البيولوجيا في إيجاد حلول مبتكرة، ساعيةً في الوقت عينه للتوفيق بين الانفتاح على هذه المعارف والقدرات الجديدة وتوخي الحذر وتحمل المسؤولية، الأمر الذي لا غنى عنه للحفاظ على قيم الإنسانية في كافة الظروف.

إن نشأة أخلاقيات البيولوجيا ليست وليدة الصُّدف ولا هي إشراقة عبقرية لمفكر بعيد النظر[1]. بل إن بزوغها يعود إلى عوامل تاريخية وعلمية واجتماعية. فمنذ نحو خمسين عاماً، أتاح التقدم الهائل المحرز في العلوم الطبية آفاقاً جديدة للبحث العلمي وتحسينات لا يتطرق إليها الشك في مجال صحة الناس، مع طرح تحديات لم نكن نتصورها على المستوى الأخلاقي.

أما كل اكتشاف جديد في مجال البيولوجيا والعلوم الطبية، مثل عمليات زرع الأعضاء الذي كان من شأنه إنقاذ أرواح إنسانية لا حصر لها، أو تقنيات المساعدة على الإنجاب بالوسائل الطبية التي أوجدت حلولاً لبعض المشكلات المتعلقة بعُقم الزوجين، فإنه واجه عقبات نفسية واجتماعية وأثار تساؤلات ذات طابع ديني أو أخلاقي. وينسحب ذلك أيضاً على البحوث المتعلقة بالأجنة البشرية (وهو موضوع حساس للغاية، حيث أنه يتناول أصول الحياة ويستخدم مفاهيم أخلاقية واهتمامات علمية، بل ومصالح مالية)، وبالتشخيص الوراثي للأجنة قبل زرعها (وهو عبارة عن تقنية تتيح إنجاب مواليد لا يتعرضون لأي مرض وراثي عضال)، أو باستخدام الخلايا الجذعية (وهي خلايا متعددة الأغراض من شأنها أن تتحول إلى مجموعة كبيرة متنوعة من الخلايا الجسمية؛ وتتسم هذه الخلايا بأهمية حاسمة فيما يتعلق بمستقبل علم الطب التجديدي).

إن الأمر لا يتعلق إذن باكتشافات محددة أو منعزلة، بل بثورة بيولوجية حقيقية. ففي خلال عدة عقود، توصل الباحثون إلى استكشاف القواعد الكيميائية للوراثة، أي المدونة الوراثية المشتركة لجميع الكائنات الحية، وإلى إرساء أسس البيولوجيا الجزيئية وعلم وراثة جديد. وهكذا، تم وضع أسس الهندسة الوراثية، التي هي علم تقني يتيح التلاعب بالجينات وتبادلها داخل نوع واحد وفيما بين أنواع مختلفة. وفي مقدور الكائن

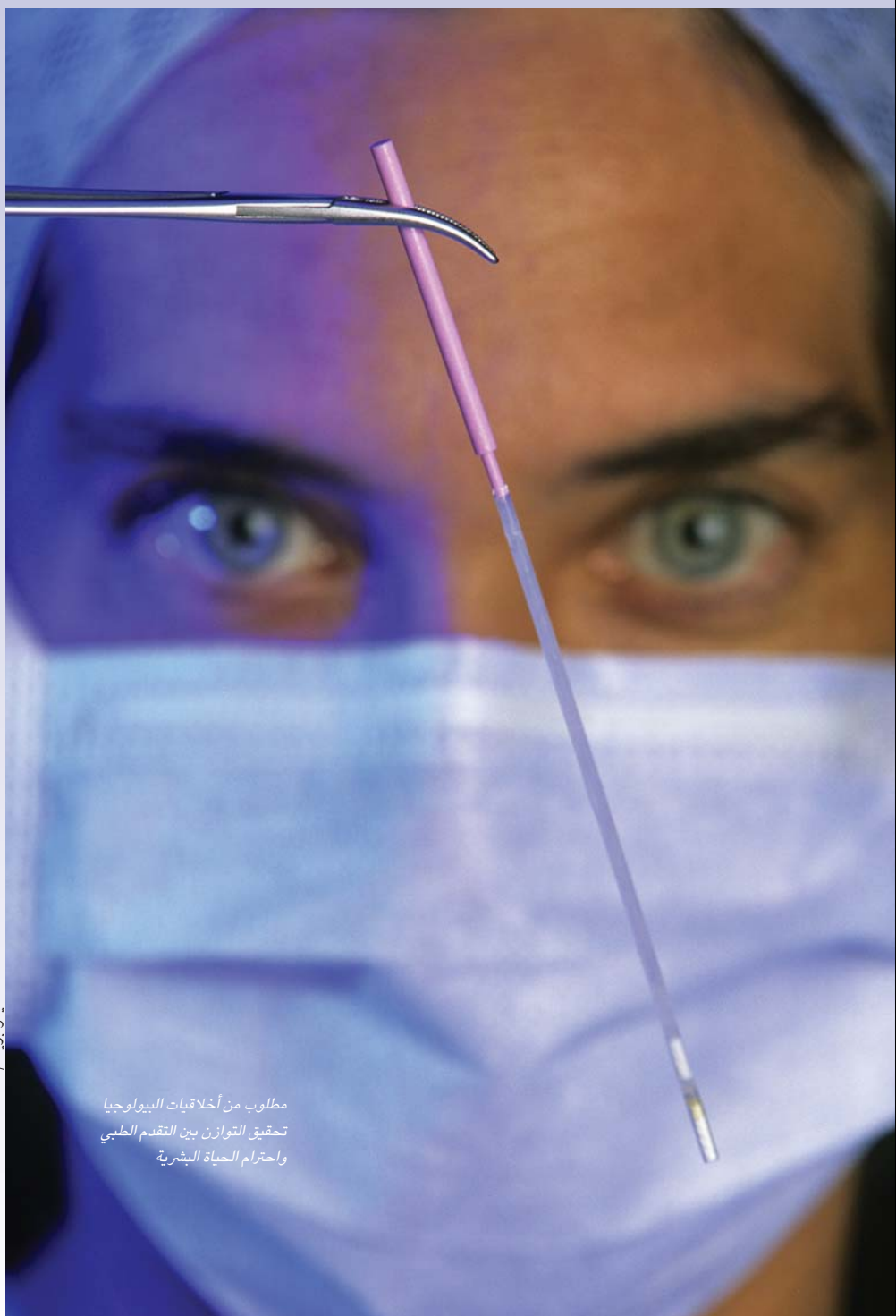

©ماسيمو بريغا/LookatSciences

مطلوب من أخلاقيات البيولوجيا تحقيق التوازن بين التقدم الطبي واحترام الحياة البشرية

١ صاغ عالم الكيمياء الحيوية الأمريكي فان رينسيلار بوتر عبارة "أخلاقيات البيولوجيا"، وهو أول من استخدمها في مقالة نشرت في عام ١٩٧٠.

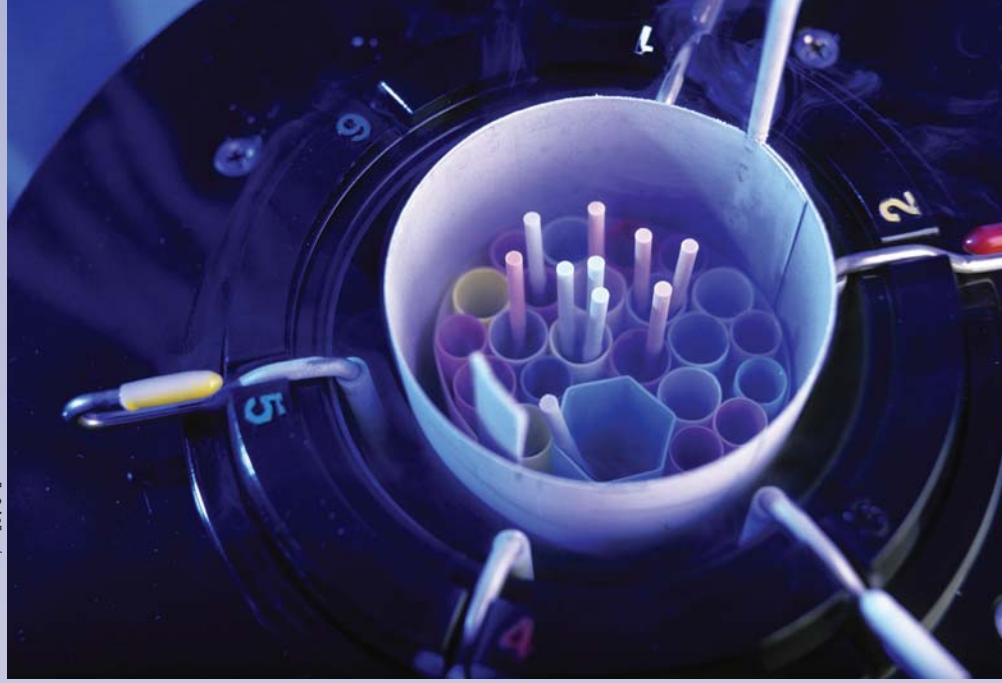

© ماسيمو بريغا/LookatSciences

زجاجات النيتروجين السائل تحتوي على رقائق تستخدم في سياق المساعدة على الإنجاب

البشري الآن أن يتلاعب بالمواد الوراثية ويعدّلها لأغراض عملية، بل ويستطيع أيضاً التدخل في طبيعته البيولوجية باعتباره نوعاً من الأنواع، وهو ما يشكل، دونما شك، الجانب الأكثر إثارة للقلق من وجهة نظر أخلاقيات البيولوجيا.

أما أوجه التقدم في مجال علوم الحياة فإن لها انعكاسات في تصور طبيعة الجنس الإنساني ذاتها، كما أنها تطرح مشكلات مبدئية ذات طابع أخلاقي واجتماعي وقانوني من شأنها حث أخلاقيات البيولوجيا على التدخل من أجل إحداث توازن سليم ودقيق بين التقدم في علوم الطب واحترام الحياة الإنسانية.

ومن ثم ينبغي لأخلاقيات البيولوجيا التسليم بمنافع أوجه التقدم هذه، على أن تواصل توخي الحذر إزاء المخاطر التي تنطوي عليها. وذلك لأنه إذا كان من شأن أوجه التقدم وضع حد للآفات التي تلحق الضرر بصحة الإنسان منذ العصور الغابرة، فإنها تثير، مقابل ذلك، مخاوف مبررة فيما يتعلق بما قد تنطوي عليه من انحرافات وآثار غير مرغوب فيها، مثل عمليات التلاعب الوراثي وتطبيقاتها المتنوعة، والعودة إلى المذاهب الداعية إلى تحسين النسل – وهي المذاهب التي يتوافر لديها الآن وسائل تقنية – أو إلى التجارب التي تُجرى على أشخاص مستضعفين.

هذا، وقد كان لهول الفظائع[٢] التي أُرتكبت أثناء الحرب العالمية الثانية ما دعا إلى نشأة أخلاقيات البيولوجيا، التي اعتبرت بمثابة رد فعل بلغ أوْجَه بصدور الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨. واستناداً لهذه القاعدة الإنسانية العالمية، فإن أخلاقيات البيولوجيا حددت الهدف الأساسي لمهمتها، ومفاده أنه، نظراً لتغير مشهد علوم الحياة وتطورها المستمر، ينبغي تأكيد أولوية الكائن الإنساني وحماية حقه في الكرامة والحرية على اعتبار أنه ينتمي في الأساس إلى الجنس البشري.

حوار وتوافق وتسامح

تمثل أخلاقيات البيولوجيا إذن حصن الإنسانية المنيع، نظراً إلى غايتها وطبيعتها المتعددة التخصصات. وللتصدي للتحديات الجديدة التي تطرحها العلوم، حيث يبدو أن الأخلاقيات التقليدية ليست كافية، فقد تعين الحفاظ على علوم الطبيعة والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، كل منها بمنهجيته ووجهة نظره الخاصة، والاستعانة بجميع مجالات المعرفة، بدءاً من الفلسفة إلى الطب وإلى البيولوجيا، ومروراً بالقانون وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا.

وعلاوة على ذلك، فإن أخلاقيات البيولوجيا تستند إلى قيم النزعة الإنسانية فيما يتعلق بأساليبها وعملياتها التي ترتكز على البحث عن توافق من خلال حوار مستنير وبناء مع جميع القطاعات المعنية، حيث أن المجتمع لم تعد تقتصر مهمته على القيام بدور سلبي في مواجهة خيارات تهدد بقاءه وتُعرض سلطته الأخلاقية للشبهة. ومن ثم لا بد لأخلاقيات البيولوجيا أن تتخذ موقفاً منفتحاً ومتسامحاً يرمي إلى اعتماد قواعد وقوانين تحترم واقع المجتمعات المتعددة الثقافات ذات التقاليد والمعتقدات الفريدة.

ومن جانب آخر، لا ينبغي أن تقتصر هذه القيم الإنسانية على حفز التفكير النظري. بل يجب أن تنطبق على الحياة الواقعية، اليومية، عندما يتعلق الأمر، على سبيل المثال، بإيجاد حلول للمشكلات المطروحة في مجال الرعاية الصحية. كما لا ينبغي إغفال أن ميدان أخلاقيات البيولوجيا قد امتد ليشمل أبعاداً اجتماعية للصحة، مثل الفقر والتغذية والانتفاع بالمياه الصالحة للشرب والخدمات الصحية والأدوية.

ولقد أثارت أخلاقيات البيولوجيا نشاطاً نضالياً عالمياً يُسهم بالفعل في تحقيق المثل العليا للعدالة على الصعيد العالمي، وذلك بفضل العمل الذي تضطلع به اللجان الطبية واللجان الوطنية المعنية بالأخلاقيات، فضلاً عن أنشطة التعليم والبحوث. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن مدارس الطب، دون استثناء بالتقريب، قد أدرجت أخلاقيات البيولوجيا في برامجها التعليمية، وهو ما يدل على طابعها الذي لا غنى عنه بالنسبة للممارسات الطبية. وفي جميع الخدمات الصحية تقريباً، تم إنشاء لجان لأخلاقيات الرعاية الصحية. كما لا يوجد بلد لا تتوافر فيه لجنة وطنية لأخلاقيات البيولوجيا أو فريق من المتخصصين في هذا الشأن. وفي كل مكان، يتم اعتماد مدونات وقواعد وبروتوكولات في موضوع أخلاقيات البيولوجيا. وقد رأت اليونسكو أن من الضروري إقامة إطار للتفكير والحوار، ألا وهو اللجنة الدولية لأخلاقيات البيولوجيا، وإعداد مبادئ توجيهية من شأنها تعزيز هذا الفرع استناداً إلى حقوق الإنسان، وذلك في ثلاثة إعلانات ذات طابع عالمي.

إن هذا الارتباط بين أخلاقيات البيولوجيا وحقوق الإنسان يجيز لنا أن نبين شكلاً جديداً للنزعة الإنسانية يتوافق مع المقتضيات والتحديات التي يواجهها عصرنا. وتسلم هذه النزعة المجددة بالعنصر البيولوجي والأخلاقي للطبيعة الإنسانية التي ينبغي الحفاظ على كرامتها بصورة مباشرة وفورية. كما أن الحفاظ على الكائنات الحية في جميع مظاهرها إنما يندرج في إطار مسؤولياتها وواجباتها، وذلك تجاه الأجيال القادمة، وكذلك فيما يتعلق ببقاء النوع الذي ننتمي إليه.

سلفادور بيرغيل (الأرجنتين)، حاصل على درجة الدكتوراه في العلوم القانونية والاجتماعية ومتخصص في المسائل المتعلقة بأخلاقيات البيولوجيا. كما أنه يشغل كرسي اليونسكو الجامعي المعني بأخلاقيات البيولوجيا في جامعة بيونس آيرس.

٢ تشمل هذه الفظائع، ضمن ما تشمل، التجارب شبه العلمية المروعة التي خضع لها سجناء معسكرات الاعتقال النازية.

"لعبة القمر" للمصور لورنت لافيير

© لورنت لافيير/ LookatSciences

سبعة سبل أمام مستقبل الإنسانية

إذا كانت القيمة، في وقتنا الحاضر، للشجرة بما تُثمر، وللحيوان بما يوفّره من لحم وجلد؛ إذا كانت القيمة قد حُوِّلت إلى ثمن، فذلك يعني، كما يرى كْريستوفام بواركي، أن مشروع الثقافة الإنسانية قد حُرِف مع مرور القرون. ومن ثَمَّ فهو يرى أن إدراك التحديات التي يواجهها كوكبنا يمثّل الشرط الأول الأساس لقيام الثقافة الإنسانية الجديدة، التي ينادي بها على أساس فكرة حداثة أخلاقية.

كريستوفام بواركي

نشأت الثقافة الإنسانية في عصر النهضة الأوربية من اقتران الفكر اليوناني، وقد أُعيد اكتشافه، مع الشعور بأولوية الإنسان على وجه الأرض. فأعلت شأن الإنسان كائنا متميِّزا عن سائر كائنات الطبيعة: كائنا منفصلا ومسَيْطرا. ولم يكفِ أن هذه الرؤية للإنسان والطبيعة قد هيمنت، لكنها لقيت تعزيزا من جانب الإنسان الذي أثبت اقتداره الخارق بما أجراه من تحويلات على الطبيعة.

لكن هذه الثقافة الإنسانية طغت، بعدما توطَّدت، فسلكت درب فقدان الطابع الإنساني: إذ إن القنبلة الذرية ترمز بحد ذاتها إلى حلول عهد حضارة الانفصام. كيف لا والإنسان، بعدما أحرز ترويض الطبيعة بفضل ما تزوّد به من وسائل التكنولوجيا، ترك هذه التكنولوجيا تطغى عليه، وتضع له بارامترات النظام الاجتماعي، مدمِّرةً البيئة، ومعمِّقة الفوارق الاجتماعية.

الا إن التهديد المحدق بمستقبل كوكبنا يفرض علينا إعادة توجيه مشروع الثقافة الإنسانية بحيث يعتمد، في نظري، على سبعة أركان يلي بيانها.

سياسة على نطاق الكوكب

ما كانت تمثّله المدينة عند أهل أثينا، أصبح هو الدولة-الأمة عند الديمقراطيات الحديثة. إذ إن المواطنة – هذا المفهوم الذي ابتدعه الإغريق القدماء وكان يتضمّن التزام أهالي المدينة نحوها – تحوّل شيئا فشيئا إلى التزام نحو البلاد بأسرها.

هذا المقال هو مقتطف من مداخلة لكريستوفام بواركي في منتدى الأمم المتحدة العالمي الثالث لتحالف الحضارات، الذي عقد في ريو دي جانيرو، البرازيل ، في أيار/مايو ٢٠١٠.

فالأزمة العالمية الراهنة تُهيب بنا إلى تحمّل مسؤوليتنا كمواطنين للكوكب، أو بعبارة أخرى، إنها تستدعي التزاما من كل شخص نحو مستقبل البشرية على وجه الأرض. فيُفترَض في الثقافة الإنسانية الجديدة التي أنادي بها أن تُرهِف الشعور بأهمية كل كائن بشري، والشعور بالتضامن العالمي.

احترام التنوع

في الماضي، أبدى الإنسان ازدراء للإنسان الآخر، كما تشهد على هذا الازدراء إبادة سكان القارة الأمريكية الأصليين، وتجارة الرقيق الأسود، وكل أشكال العنصرية ومعاداة الأجانب، التي تنمّ جميعها عن شعور بالفوقية تجاه الثقافات الأخرى. أما إذا أردنا أن نبني ثقافة إنسانية جديدة فيتوجّب علينا مكافحة المركزية الإثنية، وجعل البشرية لامركزية، تكنّ الاحترام للتنوع الثقافي. نعم، يتوجّب علينا تهدئة نزاع الثقافات، واعتبار كل منها ثروة بحد ذاتها، واعتبار أن تفاعل هذه الثقافات يفوق مجرّد تجميعها بعضا إلى بعض.

احترام البيئة

في الماضي أبدى الإنسان غطرسة وعدم مسؤولية تجاه الطبيعة. فاستنفد الموارد الطبيعية، وخرّب التوازن الإيكولوجي، حتى إنه أصبح اليوم بسبب ذلك يهدد مستقبل الحضارة، إذ يُنكِر كل قيمة للطبيعة. وصار مصدرُ القيمة، على وجه كوكب مُزدرى وفي منتهى الضيق، محصورا في قيمة النشاط البشري وسعر السوق: فقيمة الشجرة بالخشب الذي تُنتجه، وقيمة الحيوان بلحمه وجلده، وقِس على ذلك.

أما الثقافة الإنسانية التي أتمنّى قيامها بكل جوارحي فيجب فيها أن تدمج الحضارة تمام الاندماج في التوازن البيئي. فلا يعود الإنتاج الاقتصادي يقاس فقط بمجموع السلع والخدمات المادية أو إجمالي الناتج القومي، بل يتوجب أن يراعى في حسابه مجمل التكاليف الناجمة عن النفايات التي يُنتجها.

تأمين فرص متكافئة

لقد شكلت الثقافة الإنسانية أرضية ومنطلقا لحلم تحقيق المساواة بين البشر. لكن الرأسمالية غذّت الفوارق وزادتها حتى إن الأجل المتوقَّع للفرد يختلف تبعا لانتمائه إلى فئة الأغنياء أو إلى فئة الفقراء. ومن جهتي أحلم بثقافة إنسانية جديدة تضمن فرصا متكافئة، تخدم حركة الارتقاء الاجتماعي، وتضع معالم إيكولوجية تردع الناس عن الانسياق في وتيرة استهلاكية تستنفد البيئة، وتبسط شبكة أمنية تحمي المحرومين.

ضبط الإنتاج

إن ازدياد قيمة العمل على حساب قيمة الأرض جعل الإنسان منتِجا للقيمة، ووضع العاملين في صميم عملية الإنتاج. لكن هذا الفتح الاجتماعي الاقتصادي انقلب على الثقافة الإنسانية، عندما تحولت القيمة إلى سعر تحدده قوى السوق الخفيّة، الخارجة عن الضوابط الإنسانية. ومعها حلّت التفسيرات محل العدالة، والطلب محل الإرادة، والنزوات الاستهلاكية محل تلبية الاحتياجات. فإذا أردنا أن نبني ثقافة إنسانية جديدة توجَّب علينا أن نعيد تحديد نهج الأمم والجنس البشري نحو سيرورة إنتاج متوازنة إيكولوجيًا، تشتمل على إناطة قيمه بالأشياء غير القابلة للبيع والشراء.

يجب في الثقافة الإنسانية الجديدة أن تلغي الرِقّ الذي ما زال يسجن الإنسان، عندما يجعله مجرّد آلة في عملية الإنتاج.

الدمج بفضل التربية والتعليم

كانت الثقافة الإنسانية القائمة في عصر التصنيع تعِد بمستقبل تتعادل فيه المداخيل بفضل الاقتصاد. إذ كان يُفترَض، بحسب

اليوم، في ظل الاقتصاد الجديد، اقتصاد المعرفة والرأسمال الجديد، أصبح مفتاح التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية يكمن في توفير تعليم جيّد للجميع

الرأسمالية، أن زيادة الإنتاج متضافرةً مع قوانين السوق من شأنها أن تولّد وجوبا «ظاهرة انسياب»، يعني توزيع الثروات من أعلى الهرم الاجتماعي إلى قاعدته. أما في نظر الاشتراكية فإن التوزيع يجب، على العكس، أن تضمنه الدولة وقوانين التخطيط.

واليوم، في ظل الاقتصاد الجديد، اقتصاد المعرفة والرأسمال الجديد، أصبح مفتاح التقدم الاقتصادي والعدالة الاجتماعية يكمن في توفير تعليم جيّد للجميع. فالتحدي الذي ينتظر الثقافة الإنسانية الجديدة يتمثّل في تهيئة الظروف بحيث يتسنّى لكل طفل الانتفاع بتعليم جيد متساوٍ، بصورة مستقلة عن أصله العرقي، وغنى أسرته، ومكان إقامته. إن «ظاهرة الانسياب» التي وعدت بها الرأسمالية لن تنشأ أبدا عن السوق، بل، على العكس، عن حركة ارتقاء تتولّد من التربية والتعليم.

والهدف الطويل الأجل لهذه الصيرورة هو دمج مجمل شعوب العالم في شبكة تغطّي كوكبنا الأرضي، بفضل استعمال كل التقنيات المتيسِّرة.

حداثة أخلاقية

اتّسمت الحضارة الصناعية بالسعي وراء حداثة تقنية، بتطبيق تكنولوجيات تُستَكمل على نحو مستمر. فقامت من ثَمّ عقلية اقتصادية تبرر المنتجات التكنولوجية الأكثر تطورا، تاركة جانبا الأهداف الاجتماعية، غير عابئة بالقيم الأخلاقية. أما الثقافة الإنسانية الحديثة فإنها ستعتمد، خلافا لذلك، على القيم الأخلاقية روافعَ للأهداف الاجتماعية، متّخذة من هذه القيم أساسا لعقلية اقتصادية تحكم مجمل الخيارات التقنية. وحتى في هذه الحالة، ينبغي اختيار التقنيات وفقا لمعايير أخلاقية وجمالية، وليس فقط من منظور الفعالية الاقتصادية.

وهكذا يتوجّب، في ظل الثقافة الإنسانية الجديدة، أن تحل حداثة أخلاقية محل الحداثة التقنية، المعرَّفة بالابتكار التكنولوجي والنزعة الاستهلاكية. فلا يعود، على سبيل المثال، يُجرى تقييم وسائل النقل بعدد المركبات الخاصة المنخرطة في حركة السير، بل يصير التقييم على أساس السرعة، ورفاهية المنتفعين بها، ودقة مواعيدها، وشمول الانتفاع بها.

وبناء على ذلك، فمثلما بذل المارق أينشتاين جهده في سبيل مخاطبة الله بتودد ليسترق منه تفاصيل خلق العالم، يجب في الثقافة الإنسانية الجديدة أن تجد الوسيلة المُثلى لبناء حضارة ديمقراطية، مطبوعة بالتسامح، وفعالة في خدمة البشرية جمعاء وكل كائن بشري بمفرده، ضمن حدود الاحترام الواجب للطبيعة. وهذه الوسيلة هي الحوار فيما بين الشعوب، وبين الشعوب والطبيعة. نعم، إن الثقافة الإنسانية الحديثة ستعتمد على أساس هو الحوار: بين الثقافات، ومع الطبيعة الأم.

كريستوفام بواركي هو عضو بمجلس الشيوخ وأستاذ في جامعة برازيليا، كما كان وزيرا للتربية والتعليم في عام ٢٠٠٣. وقد كرس حياته السياسية بصفة خاصة في الكفاح من أجل محو الأمية، وتنفيذ الإصلاح الزراعي، وتحسين النظام الصحي البرازيلي كما وتحسين ظروف العمل في البرازيل .

مقر اليونسكو: ٢٠١١

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

جان ماري لين خلال انطلاقة السنة الدولية للكيمياء، ٢٧ يناير

©اليونسكو/أنيا فريندورف

أسبوع أفريقيا من ٢٥ حتى ٢٨ أيار/مايو

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

٨ مارس، اليوم العالمي للمرأة: ايرينا بوكوفا مع وفد تايلاندي.

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

ستيفان هيسيل خلال انطلاق النسخة الرابعة من «جامعة الأرض»، ٢ أبريل

©اليونسكو/دانيتسا بيجيلجاك

كلود لانزمان خلال عرض فيلمه «شواه» في نسخته الفارسية، ٧ مارس ٢٠١١

©اليونسكو/دانيتسا بيجيلجاك

آموس كولانج، بعد عام من زلزال هاييتي، ٢١ يناير

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

مودست نزاباسارا (جمهورية وسط أفريقيا)، ٢٧ مارس

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

الاحتفال بعيد «ألاسيتا»، طقوس بوليفية، ٢٤ يناير

©اليونسكو/دانيتسا بيجيلجاك

استراحة ما بعد الظهيرة مع رواد الفضاء، ٢٢ مارس

©اليونسكو/أنيا فريندورف

أوركسترا زولتان كودالي (المجر) تعزف اجلالا لفرانز ليتش، ٢٩ يوليو

©اليونسكو/دانيتسا بيجيلجاك

مونيكا غونزاليز موجيكا، (شيلي)٢٦ يناير

©UNESCO/Danica Bijeljac

الممنوحين دولياً - يونسكو -لوريال ٢ آذار -مارس ٢٠١١

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

ميمي بارثليمي (هايتي)، كرست كتبها الأخيرة للأطفال، ٢١ فبراير

© اليونسكو/دانييلا بيجلجالي

الأطفال المجنّدون:

العمر طويل أمامهم

حديثا، عُيِّن الممثلُ المخرِج الأمريكي، فورِسْت وايتيكِر، سفيرَ مساعٍ حميدة لليونسكو. إنه يناضل بكل جوارحه من أجل الأطفال المجنَّدين، وقد كرَّس نفسه لقضيّتهم. فهو يُكْثِر من المناسبات التي تمكّنه من مساعدتهم على التعبير عن أنفسهم، والعودة إلى جماعاتهم التي أُبعِدوا عنها، وقبول التربية والتعليم، والصفح عن أنفسهم، واستعادة اعتبارهم.

فورِست وايتيكِر يجيب عن أسئلة كاترينا ماركيلوفا

في عام ٢٠٠٨، أخرَجتم فلما من إنتاجكم بعنوان Kassim, The Dream (قاسم، الحلم)، سبق لبطله أن كان طفلا مجنَّدا وأصبح لا يستطيع أن يغفر لنفسه ما ارتكبه من الجرائم. فمن هو؟

إن القصة المأسوية التي تحكي سيرة الشاب الأوغندي قاسم أومة قصة رمزية. هي سيرة رجل خارق، ملاكم عظيم، اشتهر في فئة الوزن المتوسط مطلع عام ٢٠٠٠، وكان في انطلاقة جيدة نحو تحقيق حلمه... حين استحوذت عليه أبالسة الماضي، فعاد إلى أوغندا. يشاهَد في الفلم معتكفا على قبر والده الذي قُتل بسببه. قاسم يجسِّد الخسارة القاتلة، خسارة اعتبار الذات. لم يستطع أن يتصالح، لا مع العالم الذي جعل منه طفلا مجنَّدا، ولا مع نفسه.

ومن بين الأطفال المجنّدين الذين التقيتم بهم، هل توصّل كثيرون إلى الصفح عن أنفسهم؟

لا، ليسوا كثيرين. ولكن بالمقابل عرفتُ كثيرين يرون كوابيس في المنام. فهم بعدما اقترفوا فظائع، يتوصّلون إلى الصفح عن أنفسهم، لكنه ليس صفحا كاملا. وأعسر ما يعترضهم هو الاندماج من جديد في

فوريست وايتكر في *اليونسكو في حزيران-يونيو ٢٠١١*

جماعتهم التي تنبذهم، حتى لو لم يقترفوا – وبالأحرى إذا اقترفوا – أفعال عنف بحق أعضاء الجماعة. مهما عِلم أعضاء المجتمع وأُعلِموا أن هؤلاء الأطفال جُنِّدوا بالقوّة وأُكرهوا على القتل، يبقَ القاتل قاتلا في نظر المجتمع. فكيف لهؤلاء «القتلة» أن يغفروا لأنفسهم في هذه الظروف؟ وكيف لنا بمعالجة شافية لهذه الأمراض؟ إن هذا يستلزم جهودا خارقة. يتحتَّم أن نوفِّر لهؤلاء الشباب شواغل تستغرق اهتمامهم ونشاطهم كليا. وإلا، فإنه من الصعب عليهم الخروج من حالتهم إلى شاطئ النجاة.

لكنّني، من جهة أخرى، راسخ القناعة أن باستطاعتهم الخروج من هذه الحالة، إذا توفّر لهم جيِّدُ التربية والتعليم. إذ إن هذا يعني تفتيح الأذهان، وإظهار الفرَص المتاحة لكل إنسان منّا. نعم، من شأن التربية والتعليم الإسهام في تفتيح فهمنا، ثم مساعدتنا على التوجّه نحو شكل ما من الشفقة. ومن شأن هذه متى توفّرت أن تقودنا إلى المغفرة، وهذه تقود إلى المحبة: محبّة الذات ومحبة الآخرين. ذلك هو المسار الذي يسلكه الأطفال المجنَّدون حين يُعطَوْن الوسائل الموصلة. ويكون نجاح بعضهم أفضل من نجاح البعض الآخر.

ما هي الأسباب التي دفعتكم إلى اعتناق قضية الأطفال المجنّدين؟

باشرتُ مشاريعي لصالح الأطفال المجنَّدين في أوغندا، قبل اليوم بخمس سنوات. وكنت قد عملت قبل ذلك في ميدان مكافحة الملاريا في أفريقيا، واشتغلت أيضا مع رابطات مكرِّسة لمكافحة العنف البدني. وتفرّغت أيضا للعناية بظاهرة العصابات في الولايات المتحدة الأمريكية، ولهؤلاء نقاط مشتركة مع الأطفال المجنَّدين في أفريقيا.

فأنا لا أفصل هؤلاء الشبان عن سائر العالم، بل اعتبرهم جزءا منّي. وقناعتي راسخة أننا جميعا خرجنا من كيان أصلي واحد، ونتوق إلى تحقيق الوحدة بيننا من أجل استعادة ذلك الكيان. فعندي أن محاولة فهم ومساعدة أولئك الفتية أعضاء العصابات أو أولئك الأطفال المجنَّدين تشكل خيارا لا فكريا وعاطفيا فحسب، بل روحيا أيضا. وليس هذا الخيار بحاجة إلى تفسير ولا إلى تبرير، إنه جزء من الترتيب الطبيعي للأمور. على هذا النحو أرى العالم، وعلى هذا النحو أُدرك الله.

ما هي النقاط المشتركة التي تجدونها بين العصابات الناشطة في الولايات المتحدة والحروب الأهلية الدائرة في أفريقيا؟

هذا هو بالضبط السؤال الذي أجيب عنه مطوَّلا في الفلم الوثائقي Common destiny [مصير مشترك]، الجاري إخراجه. فقد أجرينا مقابلة مع طفل مجنَّد أوغندي ومقابلة مع عضو في عصابة الـ Blood الناشطة في لوس أنجِلِس، ثم قارنّا سيرتَيْهما فوجدناهما متشابهتين جدا. كلاهما أُدخِل قسرا في أعمال العنف. وكلاهما اعتدى على أشخاص من جماعته.

حضرت، وأنا بعد طفل، نشوء العصابات في الولايات المتحدة الأمريكية، وعلى وجه الخصوص عصابتَيْ الـ Crips والـ Bloods في لوس أنجِلِس. رصدتهما منذ يوم ظهرتا إلى يوم أصبحتا عصابتَيْن دوليتين. كنت أعيش في الحي الأزرق، حي الـ Crips، وكان ابن عمّي يعيش في الحي الأحمر، حـي الـBloods. انخرط ابن عمي في

الطفل المجند مع عائلته، أنجولا، ٢٠٠٤.

©صورة للأمم المتحدة/كريس ساتلمير غر

عصابة الحمر. فلو أني انخرط في عصابة الزرق لصرنا عدوَّيْن كل منا للآخر، وصار من المحتمل أن نقتتل فيما بيننا. وفي مناطق النزاع داخل أفريقيا، حيث الجيوش المتمرِّدة تختطف الأطفال لتصنع منهم جنودا، أفلا يصير أبناء الأعمام أعداء بعضهم لبعض على نفس النحو؟

وعليه فإن أوجه الشبه كبيرة بين أعضاء العصابات والأطفال المجنَّدين. عناصر كلا الفريقين يندسون، غير مرئيين أكثر الأحيان، في كواليس التهريب، الاتّجار بالمخدِّرات والأسلحة.

في فلم Common destiny [مصير مشترك]، تعتزمون إظهار الآليات التي من شأنها إحلال السلام في الجماعات التي دمّرتها النزاعات. فكيف تنوون التصرّف؟

سنعمد إلى تتبّع أشخاص يعيشون في مناطق فريسة للنزاعات المسلحة. وبمساعدة اليونسكو، سنحلل مسارات هؤلاء الأشخاص، وأشكال نضالهم، ونجاحاتهم. سنقوم أيضا بتنظيم محاضرات عن مدلول السلام عند هؤلاء الأشخاص، ومحادثات مع مسؤولين سياسيين ومنظمات غير حكومية. وسيمكّن هذا العمل الوثائقي الأشخاص المعنيين من إسماع أصواتهم، وفي الوقت نفسه من إعطاء أمثلة على كيفية التوصّل إلى إحلال السلام.

ولم نختَر بعد البلدان التي سنزورها. لا أزال أفكر في الأمر، وقد تباحثنا فيه هنا داخل اليونسكو، قبل اليوم بزمن قريب. وأعتقد، على أي حال، أننا سندرس أنماطا مختلفة من النزاع، مرتبطة بمشكلات بيئية، وبالهجرات، ومعاداة الأجانب، وغير ذلك. وسأكرِّس على الأرجح سنتين لتنفيذ هذا المشروع.

هل عندكم مشاريع أخرى، في أطار مهمتكم الجديدة سفيرَ مساعٍ حميدة لليونسكو؟

لديّ عدة مشاريع. سأعمل على تحقيق برنامج إعداد وتدريب الشباب على فض النزاعات. وسنساعد الأطفال اللاجئين على العودة إلى بلدانهم الأصلية، وسندرب أشخاصا لمساندتهم عند عودتهم. وسننشئ أيضا من أجلهم موقع إنترنت يمكّنهم من التواصل فيما بينهم وبسائر الجهات في العالم.

ومن جهة أخرى، تعمل حاليا الشركة التي أسستها على إنتاج ما لا يقل عن ستة أفلام وثائقية، تعالج أغلبيتها موضوعَي السلام والمصالحة. ونعمل أيضا مع الشركة الفرنسية استوديو ٣٧ على أنتاج فلم خيالي بعنوان Better angels [ملائكة أفضل]، يعالج نفس الموضوع. سيؤدي البطل الرئيسي في هذا الفلم دور محقق صحافي عن الحرب، يذهب إلى أوغندا لإجراء مقابلة مع كوني، رئيس جيش الرب المقاوم، جيش يتألف جزئيا من أطفال.

وتضطلعون بدور المحقق الصحافي، أليس هذا صحيحا؟

نعم. قبل الآن ببضعة أشهر، رحنا إلى أوغندا من أجل تعميق بحوثنا، وإجراء مقابلات مع جنود، والتأكد من أن ما نعرضه في الفلم مطابق للواقع. وفي مواكبة ذلك، نقوم بعمل يتناول موضوع الشفقة، وما تعنيه الشفقة بالفعل. فباشرنا أخيرا فيلما وثائقيا مخصصا لركّاب الدرّاجات الروانديين، الذين ذاقوا العذاب أثناء الحرب الأهلية التي استعَرَت بداية تسعينيات القرن الماضي. إنه فلم فيه شيء من التفاؤل. ولا يَغرُبَنّ عن بالنا أن الألعاب الأولمبية التي ستُجرى في لندن عام ٢٠١٢ ستستقبل لأول مرة راكب دراجة رواندي.

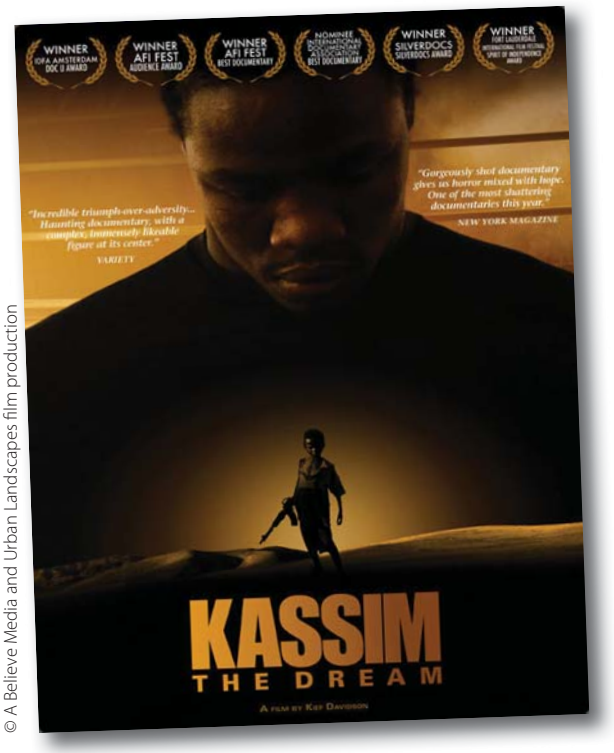

© A Believe Media and Urban Landscapes film production

ملصق للفيلم "قاسم، الحلم"، الفيلم الذي كان فيه فورِست وايتيكِر منتجا تنفيذيا، ٢٠٠٨.

في العالم ٢٥٠ ٠٠٠ طفل مجنَّد

يفيد تقرير للأمم المتحدة صادر في عام ٢٠١٠ أن زهاء ربع مليون طفل في العالم جنَّدتهم مجموعات أو جيوش متمرّدة. إلا أن العام السابق كان شهد بعض النجاح في العمل على تسريح الأطفال المجنَّدين، ولاسيما في الفلبين، وجمهورية الكونغو الديمقراطية، وجنوب السودان، وسري لانكا، وبورندي، حيث أمكن صرف أطفال مجنَّدين من الخدمة ودمجهم في المجتمع المدني. وفي هذا الصدد، أوضحت الأمم المتحدة أنه لا يوجد إحصائيات عن عدد الأطفال الذين قُتلوا في العالم أثناء النزاعات المسلحة.

فالطفل فريسة سهلة وعميل نافع للميليشيات وغيرها من المنظمات المتمردة. إذ إنه أسهل من البالغ انقيادا للتلقين، ودفعه إلى المجازفة بنفسه، وحمله أحيانا على ارتكاب جرائم أفظع. فهو بوصفه طفلا يشعر بواجب الطاعة لأوامر الكبير. ويستهلك المخدِّرات التي تقدم له باستهتار أكبر. وفي هذا الصدد، نشير إلى شهادة أخّاذة أدلى بها سِرج آميزي، الفنان الكونغولي الذي سبق له أن كان طفلا مجنَّدا، ونُشرت له في عدد تموز/يوليه-أيلول/سبتمبر ٢٠١١ من رسالة اليونسكو.

تطابقَ عام ٢٠١٠ مع الذكرى السنوية العاشرة لاعتماد البروتوكول الاختياري لاتفاقية حقوق الطفل، والمتعلق بإشراك الأطفال في النزاعات المسلحة. وحتى تاريخه، بلغ عدد الدول الأعضاء التي صدّقت على هذا البروتوكول الاختياري ١٣٢، في حين أن ٢٤ دولة وقّعت عليه، وأن ٣٦ دولة لم توقع ولم تصدّق عليه. – ك.ل. .

للقراءة: "Les armes miraculeuses de Serge Amisi" [الأسلحة العجائبية لِسِرج آميزي"] متوفر على الانترنت عن طريق الرابط التالي: http://www.unesco.org/new/en/unesco-courier/archives/ (ويمكن البحث عنه في محفوظاتنا الرقمية باعتماد الكلمات المفتاحية).

الكتاب المطبوع
أفضل مجال للتخيّل

©باتريك ميدرانو وكاتي أندرسون
www.katyanderson.com www.patrickmedrano.com

"كتاب المزامير" كتاب المزامير الذي صممه ميدرانو باتريك، رسام ونحات، وكاتي أندرسون، مصورة. هذان الفنانان يعملان معا في هيوستن، تكساس، الولايات المتحدة

يشهد القرن الحادي والعشرون في بدايته ازدهاراً للمكتبات الافتراضية على الإنترنت، كما تستهل الكتب الإلكترونية مسيرة رائعة. فهل تخلف هذه الوسائل الجديدة الكتاب المطبوع وتقوم مقامه؟ يراهن الكاتب الشيلي أنطونيو سكارميتا، الذي نبغ في المجال الإذاعي، على أن الكتاب "التقليدي" سيصمد أمام هذه الهرولة نحو الأدوات الرقمية.

أنطونيو سكارميتا

إنني مرتبط بالكتاب المطبوع ارتباطاً عاطفياً لا فرار منه؛ كما أني متعلق كل التعلق بالكتابات المنقوشة التي خلفتها على جدران الكهوف أو في أوراق الرق القديمة العهد ثقافات اندثرت من زمان بعيد. ومع ذلك، فإني أنتمي إلى النوع النادر من الكتّاب المعاصرين الذين يهوون التلفزيون. فقد أنتجت خلال عشرة أعوام ـ بوسائل تستند إلى التخيل أكثر من اعتمادها على الإمكانيات المالية ـ برامج كانت تُبث في ساعة متأخرة من المساء، ولكنها احتلت مرات عديدة قائمة العشرة برامج الأكثر مشاهدة على القنوات التي كانت تذيعها في جميع أرجاء أمريكا اللاتينية.

إن التعلق بالكتاب المطبوع لا يتوقف فقط على روح الواقعية السحرية التي تمثل سمة رئيسية

١ نال هذا الكاتب الكولومبي جائزة نوبل للأدب عام ١٩٨٢.

٢ كلود ليفي شتراوس [١٩٠٨ـ ٢٠٠٩]، عالم أنثروبولوجيا فرنسي، وكان عضواً في الأكاديمية الفرنسية.

٣ ميشيل فوكو [١٩٢٦ـ ١٩٨٤]، فيلسوف فرنسي، وعمل أستاذاً في "الكوليج دو فرانس".

أُخذت هذه المقالة من المداخلة التي أسهم بها أنطونيو سكارميتا في المنتدى الثاني العالمي لليونسكو بشأن الثقافة والصناعات الثقافية، Focus 2011، الذي عُقد في الفترة من ٦ إلى ٨ حزيران/ يونيو ٢٠١١ في فيلا ريالي دي مونزا (إيطاليا).

©دو مينيك مانتل

«Caisson de livres»، لوحة لدومينيك مانتل

للأدب الأمريكي اللاتيني الذي يحتل فيه غابرييل غارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل للأدب مكانة الصدارة، وإنما يعتمد أيضاً على الإيمان الراسخ، الذي تحليت به منذ نعومة أظفاري، بأن الروايات المطبوعة تتألق ببريق ساطع يثير ما تثيره بهجة الشفوية. ولم اكتسب هذا الإيمان من قراءة أعمال علماء الأنثروبولجيا، مثل ليفي شتراوس أو فوكو، ولكنه جاءني من تجارب قروية بسيطة عشتها في سن الثامنة من عمري بالقرب من جدتي، ثم عندما بلغت سن الثانية عشرة بمصاحبة أصدقاء لي كانوا يقطنون في حي من أحياء مدينة بوينس آيرس.

وفيما يتعلق بجدتي، فقد تعودت الاشتغال بالصنارة بعد تناول وجبة الغذاء لعمل صدريّات لا حصر لها، وكانت تطلب مني الجلوس بجانبها بينما تستمع من المذياع إلى روايات ميلودرامية مرعبة تشتمل على خلفية موسيقية مؤثرة وتذاع على حلقات مثيرة للرعب. وكانت جدتي مغرمة إلى أبعد حد بمثل هذه المسلسلات الإذاعية إلى درجة أنها كانت تغضب إذا ما طلب أحد منها شيئاً، أو إذا ما رنّ جرس الهاتف، أثناء استماعها إلى المذياع. كما أنها كانت تعلق بغضب شديد على غباء أبطال الرواية التي تستمع إليها، متهمة إياهم بأنهم أقل جرأة منها على التصرف بحزم في المواقف الصعبة.

وأتذكر مسلسلاً مذاعاً، حلقة بعد حلقة، قام فيه ممثلان بدور لصيّن يحاولان عبثاً نزع خاتم يبلغ ثمنه مليون دولار من أصبع سيدة ارستقراطية. وفي كل محاولة كانا على وشك الوصول إلى هدفهما، يحدث ما يفسد نواياهما: فتارة تدخل الخادمة في الغرفة التي توجد فيها هذه السيدة؛ وتارة يدخل زوجها لتقبيلها؛ وتارة تدخل السيدة الحمام لتستحم. وعندما باءت محاولات اللصيّن بالفشل، عادا مرة أخرى ووضعا دواءً مُنوّماً في الحساء الذي ستتناوله السيدة، فأُغمى عليها وسقطت على الأرض وقام اللصان بمحاولة نزع خاتمها. ولسوء حظهما، فإن الخاتم كان من الضيق بحيث لم يتمكن اللصان من نزعه فاضطرا للهرب بعد محاولات فاشلة دامت عشر دقائق. وهنا، خرجت جدتي عن طورها؛ ولما كانت تهوى الانفعالات العنيفة، قالت لي بلغتها الإسبانية ذات اللهجة الكرواتية:»يا لهما من مغفلين. لقد كان عليهما أن يحضرا فأساً لقطع أصبع هذه السيدة الثرية وأخذ الخاتم والأصبع معاً !».

نقطة الانطلاق لحياتي ككاتب

تعودنا في قريتنا على انقطاع التيار الكهربائي من وقت إلى آخر. ونتيجة للعطب الكهربائي المتكرر، لم يكن من الممكن ترك المذياع مفتوحاً بصفة مستمرة. وهو ما كان يجعل جدتي تستشيط غضباً لانقطاع التيار الكهربائي عندما تكون أحداث المسلسل الذي تستمع إليه في أوجها. وعندئذ، كانت تلتفت إليّ قائلة:» أخبرني، أنطونيو، برأيك ما الذي يحدث الآن؟». فاضطر إلى أن أطلق العنان لخيالي وأحكي لها أحداثاً من بنات أفكاري، بحركات وإشارات وأنا ألهث من فرط ما أبذل من جهود لإرضاء ما تحب أن تستمع إليه. وكانت علامات الرضا تبدو عليها فتستمر في الشغل بالصنارة وهي تنظر إلى سقف الغرفة كما لو كانت أحداث الرواية التي أرويها تدور أمامها.

وفي أحد الأيام، لم يتعرض التيار الكهربائي لأي مشكلة وكان المذياع مفتوحاً ويبث مسلسله الميلودرامي كالمعتاد؛ غير أن جدتي أغلقت المذياع وقالت لي»:أنطونيو، إني أفضّل أن تحكي لي بنفسك ما يدور من أحداث في هذا المسلسل». وأعتقد أن هذا الطلب هو ما شكل نقطة الانطلاق في حياتي المهنية ككاتب: وذلك دونما أي دعامة مادية البتة !

وكما هو واضح، فإن إرضاء رغبات جدة تهوى القصص الخيالية كان بمثابة دعوة لاختيار مهنة الكاتب وما تنطوي عليه من هشاشة. وقد ثبت أن رضاء جدتي عما كنت أقوم به من «إضافات» دراماتيكية كان بالنسبة لي حافزاً يفوق بكثير ما تمثله درجة الدكتوراه في «الكتابة الإبداعية» التي تمنحها جامعة هارفارد الأمريكية.

إن الكاتب في نظر مراهق شيلي من جيلي، إنما هو بالضرورة كاتب ينتمي إلى أمريكا الشمالية. وتمثلت أحلامي في نيويورك ! وفي اعتلاء أضخم ناطحة سحاب هي «الإمباير ستيت»، ممسكاً في قبضة يدي شقراء حسناء مثلما فعلت الغوريلا الخيالية في الأفلام السينمائية. ففي هذه المدينة الضخمة تركزت كل العوامل اللازمة للإثارة. ومن ثم، فقد تعين «المضي في الطريق»، أي العيش «على الطريق» مثلما فعل كيروان وجيل الشعراء المعروفين باسم «البتنِك» (جيل الغضب).

ونظراً إلى أني كاتب هويت الأدب دونما أي دعامة مادية ـ فيما عدا الصوت الإنساني وربما أيضاً صمت الصحراء ـ فسيّان عندي الشكل الذي تتخذه الروايات. وإني أرى أن المشكلة التي يواجهها الأدب لا تتمثل في الدعامة، ولكنها تخص قلة القراء. وإذا كنت أدافع بحماس عن الكتاب المطبوع، فلأنه يمثل، حتى يومنا هذا، الوسيلة التي أتاحت لي أن أجد قراءً ينتمون إلى أكثر من ثلاثين لغة. بيد أن ذلك ينطبق أيضاً على الأفلام السينمائية المأخوذة عن رواياتي، بل وعلى المسرحيات الغنائية التي استندت عليها.

ومن ثم، فإني لا أخشى التغيير. بل بالعكس، أرحب به، واستفيد منه. وأيّا ما كانت الدعامة التي تستند إليها الخطابات التي سيسلمها ساعي البريد إلى بابلو نيرودا، فإن المشاعر التي ستأخذ بألباب قراء الكتب، أو أجهزة «الأيباد» (Ipad)، أو الكتب الإلكترونية، أو مرتادي صالات السينما أو المسارح، هي مشاعر واحدة.

في الأدب ما يفوق الإعلام

لقد اطلعت على إحصائيات بشأن عدد قراء الكتب الإلكترونية ولاحظت، حتى الآن، أن سوق هذه الكتب باللغة الإسبانية التي أنتمي إليها يقل إلى أبعد حد عن سوق الكتب باللغة الانجليزية.

أيّا ما كانت الدعامة التي تستند إليها الخطابات التي سيسلمها ساعي البريد إلى بابلو نيرودا، فإن المشاعر التي ستأخذ بألباب قراء الكتب، أو أجهزة "الأيباد" (Ipad)، أو الكتب الإلكترونية، أو مرتادي صالات السينما أو المسارح، هي مشاعر واحدة.

ومع ذلك، فإني أود أن أطرح الفكرة التالية: وهي أن الدعامة الورقية للأعمال الأدبية، أي الكتاب، يتزايد تطورها، وذلك فيما يتعلق على الأقل بما نسميه الفنون الجميلة، بحيث يمكن لها أن تجاور الدعائم الجديدة؛ بل إني أتساءل عما إذا كان من المحتمل أن يستفيد الكتاب من هذا التجاور. ووراء ذلك سبب وجيه: فقد أصبحت شاشات الأجهزة الإلكترونية أداة العمل الرئيسية التي يستخدمها الناس.

وحيثما وُجدنا، فإن معظم وقت العمل يمضي بين النشرات العاجلة المنبعثة من الحواسيب والتي تتفاوت درجة صخبها حسب جودة الأجهزة المعدة لذلك. وباتت التطبيقات الإلكترونية مرتبطة، في المقام الأول، بمجال العمل. فهي تضاعف من نظرتنا للأمور، وتشغل انتباهنا. وخلاصة القول، فإنها هي التي تتحكم فينا.

وبالطبع، فإن التطبيقات الإلكترونية تُعتبر بمثابة مجال مميز للاتصال بين الأفراد الذين يدركون مدى ارتباطهم باستخدامها. ومع ذلك، تجدر الإشارة إلى أن أشكال التعبير الأكثر شعبية، فيما بين مستخدمي شبكة الإنترنت، تتمثل في الرسالة الموجزة المقتضبة التي تحوي أقل عدد ممكن من الكلمات. وهي الرسالة الناقلة للمعلومات عِبر «تويتر».

غير أن في الأدب ما يفوق الإعلام. فكتاب في العلوم يُعتبر بمثابة كنز من المعلومات، كما لا تتمثل النصوص الدراسية إلا في هذا المجال: أي مجال المعلومات التي ينبغي فهمها وتعلمها والتحكم فيها وتطبيقها.

وجدير بالذكر أن الأدب لا يهتم البتة بمثل هذه المعايير العملية. فإنه يبعث السرور بما يحويه من كلمات وصور تحلق بالنفس في مجالات لا علاقة لها بلغة العلوم. وعلينا أن نقول باختصار ووضوح إن الأدب الإبداعي، سواء أكان قصصاً أو شعراً، يتعلق بمجال اللذة أكثر مما يخص مجال العمل.

وإني أعتقد أن هذا العامل السيكولوجي ـ الفرار نحو الآخر ـ سيحفظ الكتاب من نهم المعلومات. كما سيحفظه ممن يعطون المعلومات وممن يطلبونها. وبالطبع، فإنه يمكن لنا أن نشتري فيلم فيديو (DVD) ونشاهد أحدث فيلم نال جائزة في مهرجان «كان» السينمائي على شاشة جهاز التلفزيون. ولكن ذلك لا يمنعنا من الذهاب إلى السينما. ثم إن مشاعرنا الدينية تتيح لنا التعبير عنها في حوار حميم مع الله من خلال الصلاة. ولكن ذلك لا يمنعنا من الذهاب إلى دور العبادة والمشاركة في الطقوس الدينية. كما

٤ جاك كيروان [١٩٢٢ـ ١٩٦٩]، كاتب أمريكي له عدة مؤلفات منها رواية "على الطريق". وكان هذا الكاتب ينتمي إلى "جيل البِتنك"، وهو جيل من الشباب الغاضب الذين تمردوا على المجتمع الذي اعتبروه بمثابة مجتمع خاضع للنزعة المادية وتسوده عوامل النفاق والسطحية.

٥ بابلو نيرودا [١٩٠٤ـ ١٩٧٣]، شاعر شيلي نال جائزة نوبل للأدب عام ١٩٧١. يحكي أنطونيو سكارميتا في روايته " صبر متأجج" قصة ماريو جيمينيز، ساعي البريد في الجزيرة السوداء بشيلي، حيث اعتكف بابلو نيرودا، قارئ سكارميتا الوحيد، ليعمل في هدوء.

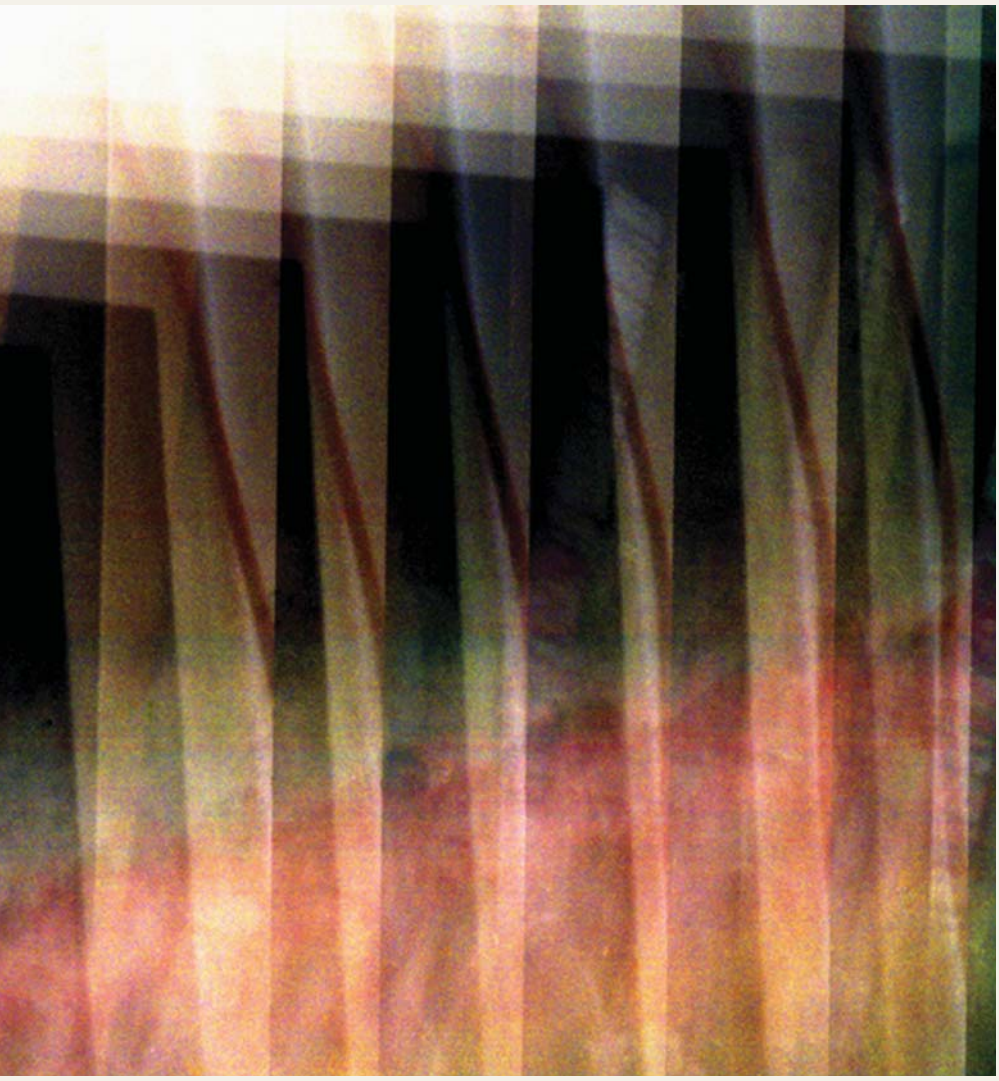

© Ruth Lantz - http://local-artists.org/users/ruth-lantz

«Blinking Transcendant»، للفنان الأمريكي روث لانتز

©سوليوس فاليوس/اليونسكو

«الكتاب المفتوح»، تثبيت للفنان التشكيلي الليتواني سوليوس فاليوس، في مقر اليونسكو في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

أننا نستطيع أن ننطق بكلمات حب إلى من نحبها من خلال الهاتف أو البريد الإلكتروني: ولكننا نسعى إلى اللحاق بها لكي تتخطى قبلاتنا كلماتها لتصل إلى الفم الذي تخرج منه هذه الكلمات. ويمكن لنا أيضاً أن نقضي يوماً بأكمله ونتلف أعيننا في مراقبة التعاملات المالية في بورصة «وول ستريت»، وعندما يأتي المساء، نذهب لمشاهدة فيلم رائع يُظهر، في ثلاثة أبعاد، شواطئ تاهيتي واللوحات الجميلة التي رسمها الفنان الانطباعي جوجان. غير أن ما نريده في واقع الأمر هو ارتياد هذه الشواطئ والاستمتاع بما فيها من جمال، وشم نسيم الريح الطيبة، وليس الاكتفاء بلذة بديلة؛ بل علينا أن نستمتع باللذة على أتم وجه. ناهيك عن السباحة في مياه البحر الأزرق الدافئة.

تجاور متوازن لدعائم مختلفة

ينبغي التذكير في كل مناقشة بشأن مستقبل الكتاب بأن الرواية المطبوعة على ورق ـ بدءاً من أوراق الرق وحتى الوسائل المطبعية الحالية ـ قد أتاحت مجالات مميزة للاتصال، مثل المكتبات ودور الكتب الوطنية أو البلدية، ونوادي القراء، وبأن هذه الأشكال ترتبط بفنون أخرى تجعل من الرواية المطبوعة والمجلدة أثراً فنياً لا مثيل له: وذلك بفضل خطوط الكتابة، والرسومات والأغلفة التي تتحلى بها، فضلاً عن تزاحم القراء للاطلاع عليها في الأماكن العامة.

وعلاوة على ذلك، فإن صدور كتاب جيد يثير إعجاباً جماعياً: فهو يمثل حدثاً ثقافياً. وإني أشك في أن الظهور الطيفي لرواية ما، استناداً إلى دعامة إلكترونية خاصة ومنعزلة، سيكون له وقع طيب ينتشر كما ينتشر الكتاب المطبوع.

ومن الواضح أن في مقدورنا مشاهدة برامج عديدة بلغات مختلفة على شاشة التلفزيون دون أن نغادر منازلنا. كما أن التنقل عبر المحطات التلفزيونية يمكن أن يطلعنا على أي ركن من أركان العالم. غير أن اهتمامنا الرئيسي يتجه دوماً نحو الأخبار المحلية، أي نحو ما يمثل ارتباطنا الحميم بأشخاص مقربين إلينا وأحداث تقع في بلدنا، الأمر الذي يشكل الموضوع الرئيسي لأحاديثنا ومناقشاتنا اليومية.

إنني لا أتبين كيف يمكن للكتاب الإلكتروني أن يكتسب هذه الهالة من الإعجاب المتزامن والاهتمام الجماعي التي تثيرها صناعة النشر وشبكات التوزيع التابعة لها، بدءاً من المكتبات وحتى الصحف. وأعني بذلك أن نشر كتاب استناداً إلى الأساليب القائمة يُعتبر بمثابة حدث ثقافي يجعل مما تحويه مخيلة كاتب من أفكار غريبة موضوع اهتمام جماعي.

ومن ثم فإني أراهن على أن من الممكن أن تتجاور أنواع مختلفة من الدعائم: فستظل الدعائم الإلكترونية مرتبطة بمجال البحث والمعلومات و«العمل» الفكري والاتصال «المنعزل» برواية من الروايات. وفيما يتعلق بالدعائم الورقية فإنها ستبقى المجال المفضل للتخيل الذي لا يستند إلى مقاصد نفعية، ولعرض فنون تجد تعبيراً لها في الكتاب المطبوع.

أما فيما يتعلق بالمهمة النبيلة التي استهلتها المؤسسات الأكثر اهتماماً بالثقافة العالمية ـ وهي المهمة المتمثلة في خلق المكتبات الافتراضية ـ فلا شك أنها تستحق كل التقدير. ونحن نرحب ترحيباً حاراً بما تتيحه هذه المؤسسات لجماهير القراء من مواد في كافة مجالات المعارف الإنسانية العظيمة بدءاً من الروايات المدونة، وذلك لأن هذه المعلومات ستنتشر وتؤثر على ملايين الأشخاص في جميع أرجاء العالم، بحيث يمكن لهم أن يكونوا أكثر إطلاعاً ووعياً، ويتمتعون، بالتالي، بأكبر قدر من الحرية.

أنطونيو سكارميتا، كاتب شيلي من أصل دلماسي (كرواتيا). في الفترة من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٨٩، اختار هذا الكاتب طواعية الإقامة في الأرجنتين ثم في ألمانيا التي عاد إليها في عام ٢٠٠٠ بوصفه سفيراً لشيلي لديها. ولأنطونيو سكارميتا مؤلفات منها Le Cycliste de San Cristobal (Seuil, 2002) Une ardente patience (Seuil 2005) و T'es pas mort (Seuil, 2007)، وقد نال ألبومه بعنوان La rédaction (أحدث طبعة Syros, 2007) جائزة اليونسكو لكتب الشباب الداعية للتسامح عام ٢٠٠٢.

انطلاقة برودانس

© جينيفر كوسكينن

برودنس مابينا في مهرجان "ماونتين فيلم"، تموز/يوليو

فقدت برودانس مابهينا قدميها، ولكن الموسيقى زودتها بأجنحة عوضاً عنهما. وقد مكّنت ممارسة الغناء هذه المواطنة الزمبابوية التي تبلغ من العمر اثنين وعشرين ربيعاً من تجاوز جميع العقبات التي اعترضت مسار حياتها: فقد أُصيبت بمرض خِلقيّ، وتعرّضت لبتْر قدميها، واستبعدتها أسرتها، ووقعت ضحية للتمييز والبؤس. ورغم كل ذلك، كونت برودانس، مع سبعة شبان يعانون من مشكلات مثيلة، فرقة "ليانا" (أي: "المطر" بلغة ندبيلي) التي استلهم منها المخرج الأمريكي روس وليامز فكرة انتاج الفيلم القصير "موسيقى ألّفتها برودانس" (Music by Prudence) الذي فاز بجائزة في مهرجان الأوسكار السينمائي.

روجر روس وليامز يجيب عن أسئلة كاتي نولان.

في أي ظروف التقيت برودانس؟

إن صديقة من نيويورك هي التي حدثتني عنها. ثم اتصلت بمدرسة الملك جورج السادس، وهي مدرسة مخصصة للأطفال المعاقين في مدينة بولاوايو، زمبابوي، التحقت بها برودانس. وأرسلت لي مديرة هذه المدرسة شريط فيديو لحفلة موسيقية أحيتها فرقة «ليانا»، بالإضافة إلى نص من ثلاث صفحات تروي فيه برودانس بنفسها قصة حياتها. يا لها من مأساة ! ودرس يبعث الأمل ! ومن ثم قررت على الفور إنتاج فيلم وثائقي مستقل للمرة الأولى في حياتي المهنية. وبعد ذلك بعدة شهور، في عيد الميلاد عام ٢٠٠٨، كنت في زمبابوي، حيث تابعت برودانس وصوّرتها على فيلم لمدة أسبوعين. وعندما عدت إلى الولايات المتحدة، وأثناء قيامي بفحص نُسخ مشاهَد الفيلم، قلت لنفسي:»لقد اكتشفت نجمة حقيقية؟».

هل كانت برودانس متعاونة معك في هذا العمل؟

في البداية، لم تكن مقتنعة كل الاقتناع. فقد ظنت أنني لن أعود للقائها، لأنها عانت الكثير من الوعود الكاذبة وخيبة الآمال. ولذلك اندهشت كل الاندهاش عند مجيئي لرؤيتها. وكان لقاؤنا الأول قوياً وحاسماً إلى أبعد حدّ. فلم يسبق لبرودانس أن طُلب منها رواية قصة حياتها. ثم أن هذا اللقاء كان أشبه بجلسة

©اليونسكو/ميشيل رافاسار

روجر روس ويليامز في مقر مجلة رسالة اليونسكو، كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠.

علاج نفساني. فقد أفصحت عمّا في نفسها دون أي تردد؛ بينما كانت الدموع تنهمر من عيناها؛ وهو ما أفضى بي إلى أن أبكي تأثراً لما تحكيه. ثم أن المصوِّر كان يبكي أيضاً. وقد تيقنت على الفور أن هذا العمل سيشكل أهم فيلم وثائقي أنتجه في حياتي المهنية. فصممت على المضي إلى آخر المطاف، رغم الصعوبات الجمة التي تعترض سير العمل في زمبابوي. فانقطاع التيار الكهربائي بسبب عُطْل هو من الأمور التي لا يمكن تفاديها البتة. ثم أنه يتعين التحقق باستمرار من أن آلات التصوير والكشافات الضوئية مشحونة. وعلى وجه الخصوص، فإن تصوير أفلام في هذا البلد غير مصرح به. وقد حالفني الحظ بألاّ أتعرض للاعتقال أو الإصابة بطلق ناري أثناء الانتخابات التي شهدت أعمال عنف في منتهى الشدة. وقد تعرضنا للطرد عدة مرات واضطررت إلى الذهاب إلي مكتب الهجرة لشرح موقفي. بيد أن الأمور كانت واضحة: فقد كنا نعمل في المحيط الذي تعيش فيه بروداس، أي في مدرسة مخصصة للأطفال المعوقين، ولم نكن نقوم بأي نشاط سياسي، وهو ما كانت تعلمه حكومة البلاد تمام العلم.

ما الذي غيَّره هذا الفيلم الوثائقي في حياة بروداس؟

تتمتع بروداس بالنجومية في مجتمعها. فقد كانت تقدم حفلات موسيقية في جميع أحياء مدينتها، مع أنها لم تكن معروفة في بقية أنحاء البلاد. أما اليوم، فهي بالتأكيد واحدة من أشهر النساء في زمبابوي. وعندما عادت إلى بلدها بعد مهرجان الأوسكار السينمائي، لم تكن تتصور ما الذي سوف يحدث لدى وصولها. فقد كان في انتظارها بالمطار مئات من الأشخاص وعشرات من الصحفيين جاءوا من كافة أرجاء أفريقيا. وعلاوة على ذلك، فإن أبيها انضم إلى مستقبليها وطلب منها العفو وهو راكع أمام سلم الطائرة والدموع منهمرة على وجهه. وفي هذه المناسبة، قال عمدة المدينة إن:» بروداس مابهينا علمتنا، نحن الزمبابويين، أن الإعاقة لا تعني العجز، وأنه يتعين أن نغيّر نظرتنا إلى المعوقين». وقد رددت الصحف هذه الفكرة، معترفةً بمدى ما أسهمت به بروداس من أجل التعريف ببلدها. ووصل الأمر بإحدى الصحف إلى أن تنشر مقالة بعنوان «لقد جاءت بروداس بالذهب إلى زمبابوي في شكل جائزة الأوسكار». وفيما يخصني، فإني أتساءل عما إذا كانت السياسات الخاصة بالمعوقين ستتغير أم لا؛ غير أن الأمر الأكيد هو أن بروداس قد أخذت بمجامع قلوب أبناء بلدها.

ما سبب اهتمامك بموضوع الإعاقة؟

لم أزل امتثل مثال المهمشين والمستبعدين والأقليات. والحق أني كنت أشعر دوماً بأني شبه «منعزل». ولذلك فإن قصة بروداس كان لها هذا الصدى في نفسي. فقد تخلّى أبي عني؛ ولكن هذا الأمر لم يماثل ما تعرضت له بروداس من قسوة. وكل الناس يعجبون بالأشخاص الذين ينجحون في التفوق على أنفسهم. وتنتمي بروداس إلى هذه النوعية من الأشخاص. وفي الوقت الراهن، تقوم بروداس بتوصيل رسالتها إلى الناس، وهي رسالة تلخصها أغنيتها المعنونة « لا تستسلم أبداً (Never give up)». ولم تزل بروداس تتحلى بعزيمة لا تلين، وبشعور أكيد بأن حياتها ستتحسن يوماً ما. كما أنها ترى أنه يتعين التعرض لظروف صعبة حتى يزداد تقدير ما توفره لنا الحياة من مقادير.

يُبيّن الفيلم الوثائقي الذي أنتجتَه أن الأشخاص المستبعدين يمكن أن تكون لديهم مواهب هائلة يتبادلها معهم الآخرون.

ليس للأطفال المعوقين، ولاسيما الفتيات في البلدان النامية، فرصة كبيرة للعثور على من يتكفل بدفع نفقات تعليمهم. فهم ينتمون إلى الطبقة المعدمة الواقعة في أسفل السلّم الاجتماعي. ومع ذلك، يتوافر لكل طفل معوق تعرض للنبذ والاستبعاد إمكانيات واعدة. فقد يمكن أن يكون مطرباً أو كاتباً، أو حتى رئيساً للولايات المتحدة !

ما الذي فعلته بروداس بعد جائزة الأوسكار؟

لقد توسطت بينها وبين منظمة مراقبة حقوق الإنسان (هيومن رايتس ووتش) والعديد من المنظمات غير الحكومية التي تعمل من أجل الأشخاص المعوقين. وعلاوة على ذلك، تلقت بروداس تدريباً في مجال الترويج للقضايا المتعلقة بهؤلاء الأشخاص، وذلك من خلال رحلاتها في أرجاء العالم.

ما هو تأثير لقائك مع بروداس عليك؟

إنه تأثير بالغ الأهمية. لقد تعرفت على بروداس؛ وأتاح لي ذلك أن أفهم إلى أي حد كانت الأمور التي كنت أشكو منها عديمة الشأن. أما بروداس فهي لا تشكو أبداً. والآن فإني أنظر إلى حياتي على نحو مختلف؛ كما أني راضٍ كل الرضا بما أنا فيه وبما أنعم به. وبالطبع، كان للقائي مع بروداس أعمق الأثر على حياتي المهنية. وهنا لا أتحدث عن جائزة الأوسكار فقط. فهذا الفيلم الوثائقي قد أضفى على عملي بُعداً جديداً: فقد أتاح الفرصة للعمل من أجل خير العالم. وإني آمل أن يحث هذا الفيلم الحكومات والأسر، بل والعالم بأسره على تقدير المعوقين كل التقدير.

تفضلوا بزيارة الموقع الإلكتروني لبروداس مابهينا

http://www.musicbyprudence.com/

المغنية الروسية ألسو أبراموفا تحصل على لقب "فنان اليونسكو من أجل السلام"

تسلمت المغنية والملحنة الروسية ألسو أبراموفا (٢٨ سنة) لقب «فنان اليونسكو من أجل السلام» في ٧ تموز/ يوليو ٢٠١١، بمقر المنظمة، وذلك اعترافاً بالتزامها بقضية أشد الفئات ضعفاً.

تسعى مؤسسة «رادوغا» التي أنشأتها ألسو أبراموفا لترميم المدارس والمستشفيات، وبناء كنائس ومساجد. وإضافة إلى ذلك فإن هذه الملحنة تقدم الدعم للعديد من دور الأيتام. وبحكم صفتها الجديدة، فإن ألسو ستبذل مزيداً من الجهود في مجال التعليم وتوفير الرعاية الصحية للأطفال، وكذلك في إنشاء دور للأيتام.

لقد برزت ألسو، المولودة في جمهورية تتارستان، في صدارة الساحة الموسيقية الروسية وهي في سن الخامسة عشرة، وذلك بفضل أول ألبوم لها يحمل اسمها، وهو «ألسو». وبعد ذلك بعام، أي في سنة ٢٠٠٠، تم اختيارها لتمثل روسيا في مسابقة الأورفيزيون (Eurovision)، في استكهولم (السويد)، حيث نالت المركز الثاني.

وهكذا انضمت ألسو، المغنية ومؤلفة الأغاني والممثلة، إلى القائمة المشهورة للفنانين الذين يعملون من أجل السلام والتي تضم شخصيات منها سيلين ديون (كندا) وفرانجيز علي زاده (أذربيجان) ومارسيل خليفة (لبنان). ويُمنح لقب «فنان اليونسكو من أجل السلام» إلى الشخصيات التي تعطي، بما لها من شهرة عالمية، صدى خاصاً لرسالة اليونسكو.

فوز رابطة "جدّات ساحة مايو" بجائزة فيليكس هوفويه ـ بوانيي للسعي إلى السلام لعام 2010

تم في ١٤ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١، في مقر اليونسكو، تسليم جائزة فيليكس هوفويه ـ بوانيي للسعي إلى السلام لعام ٢٠١٠ إلى رابطة «جدّات ساحة مايو»، وهي منظمة غير حكومية أرجنتينية، بحضور رئيسة هذه الرابطة أستيل دي كارلوتو. وفي هذه المناسبة، تسلمت الرابطة شيكاً تبلغ قيمته ١٥٠٠٠٠ دولار أمريكي وميدالية ذهبية وشهادة اليونسكو للسعي إلى السلام، وذلك بحضور الرؤساء كريستينا فرناندز دي كوشنر (الأرجنتين) والحسن درامان وتارا (كوت ديفوار) وبليز كومباوري (بوركينا فاسو) وعبد الله واد (السنغال) ومحمد ولد عبد العزيز (موريتانيا).

وهكذا تكافئ اليونسكو الكفاح الدؤوب من أجل حقوق الإنسان والعدالة والسلام الذي انخرطت فيه هذه الرابطة منذ ما يربو على ثلاثين عاماً، التي تأسست في عام ١٩٧٧ من أجل العثور على أسر الأطفال الذين خُطفوا إبان النظام الدكتاتوري العسكري في الأرجنتين.

وجدير بالذكر أن اليونسكو أنشأت جائزة فيليكس هوفويه ـ بوانيي للسعي إلى السلام سنة ١٩٨٩ لتكرم سنوياً الأشخاص أو المؤسسات أو المنظمات التي ساهمت بفعالية في نشر السلام والعمل من أجله والمحافظة عليه أو صونه في إطار احترام ميثاق الأمم المتحدة والميثاق التأسيسي لليونسكو.

اليونسكو واليابان نحو اغاثة باكستان

في مواجهة الفيضانات المروعة التي تضرب باكستان، أطلقت اليونسكو في تموز/ يوليو ٢٠١١، بالتعاون مع حكومة اليابان، مشروعاً ضخماً يرمي إلى تعزيز نظم التنبؤ والإنذار المبكر بالفيضانات، وإلى وضع خرائط للمناطق المعرضة للفيضانات الواقعة على امتداد نهر الهندوس. وسيقوم قطاع العلوم باليونسكو بتنفيذ هذا المشروع، بتعاون وثيق مع الوكالة اليابانية للتعاون الدولي وبالتنسيق مع الحكومة الباكستانية.

وسيستفيد هذا المشروع من الخبرة التقنية للمركز الدولي لإدارة شؤون المخاطر المتعلقة بالمياه التابع لليونسكو، الذي وضع نظاماً دقيقاً لتحليل الصرف السطحي، وذلك من أجل توفير أداة أكثر فعالية للتنبؤ بالفيضانات في البلدان النامية.

وتُعتبر هذه الفيضانات، التي تجتاح أقاليم خيبر باختونخوا، في السند، وبنجاب وبلوشستان، منذ تموز/ يوليو ٢٠١٠، من أخطر الفيضانات في تاريخ باكستان.

استخدام الرياضة لتعزيز السلام

في ٢٠ تموز/ يوليو ٢٠١١، ارتدى للمرة الأولى لاعبو نادي ملقة لكرة القدم قمصاناً تحمل شعار اليونسكو أثناء المباراة مع نادي الريان القطري والتي أُقيمت في مدينة ماربية.

وكان قد تم التوقيع على اتفاق في أول حزيران/ يونيو ٢٠١١ في متحف بيكاسو في ملقة (إسبانيا) بين المديرة العامة لليونسكو، إيرينا بوكوفا، ورئيس نادي ملقة لكرة القدم الشيخ عبد الله آل ثاني؛ ويرمي هذا الاتفاق إلى تعزيز ثقافة السلام من خلال الرياضة والإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي.

كما ستتولى لجنة ثنائية مؤلفة من ممثلين عن اليونسكو ونادي ملقة لكرة القدم مهمة وضع المبادرات ذات الصلة. وسيكون «لا أكاديميا» (La Academia)، أي مركز تدريب اللاعبين الشبان لفريق ملقة لكرة القدم، بمثابة مختبر لتنفيذ الاتفاق المذكور وبث روح جديدة للسلام لدى هؤلاء الشباب. وستسهم أيضاً الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي في تعزيز قيم اليونسكو في مجال الحوار بين الثقافات والتعليم. ويقوم المركز في الوقت الحاضر بتدريب ١٥ فريقاً من الشباب تتراوح أعمارهم بين ٦ و١٩ سنة، أي ما يعادل ٥٠٠ لاعب.

لمزيد من المعلومات، يُرجى الاتصال بالعنوان التالي:
http://malagacf.com/?home

النزعة الإنسانية في العصر الرقمي

« هل تتمثل النزعة الإنسانية الجديدة في التصدي للتحدي العلمي والثقافي في عصرنا؟». هذا هو موضوع الندوة التي سينظمها الوفد الدائم لإسبانيا لدى اليونسكو يومي ١٤و ١٥تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١١، في مقر المنظمة، ويشارك في أعمالها نحو ثلاثين شخصية. ومن بين هؤلاء الشخصيات: وزيرة الثقافة الإسبانية أنخيليس جونثاليث ـ سيندي والكاتب الشيلي جورجي إدوارد، والكاتب الإيطالي روبرتو توسكانو، والفيلسوفان الفرنسيان جوليا كريستيفا وروجيه ـ بول دروا، والفيلسوفان الإسبانيان أديلا كورتينا وفيكتور جوميث بين، والكاتبة السنغالية فاتو ديوم، وعدد كبير من القانونيين والصحفيين والعلميين والخبراء.

لمزيد من المعلومات، يُرجى الاتصال بالعنوان التالي:
dl.spain@uesco-delegation.org
الهاتف: ٣٣ ١ ٤٥٦٨٣٣٥٨

تعيين هيربي هانكوك سفير اليونسكو للنوايا الحسنة

في حفل أقيم بمقر المنظمة في ٢٢ تموز/ يوليو ٢٠١١، أعلنت المديرة العامة لليونسكو، إيرينا بوكوفا، تعيين عازف الجاز الأمريكي هيربي هانكوك سفيراً للنوايا الحسنة، وذلك لالتزامه بتعزيز السلام من خلال الحوار والثقافة والفنون.

وقال هانكوك في مقابلة أجريت معه في هذه المناسبة:«إنني أسعى للحصول على المعلومات، وأدلي بصوتي في الانتخابات، ولي آراء بشأن العالم الذي أعيش فيه. وعلاوة على ذلك، فإني أعيش في هذا العالم، شأني شأن الآخرين... وأرى أن من الضروري أن أعطي معنى لحياتي، وأن الوسيلة الوحيدة للقيام بذلك إنما تتمثل في الكفاح من أجل الإنسانية».

ولقد تلقى أولاً هيربي هانكوك، المولود في مدينة شيكاغو (ولاية إلينوي) منذ ٧١ سنة مضت، تعليماً تقليدياً. ثم بدأ العقد الخامس من حياته المهنية التي تُوجت بالحصول على جائزة الأوسكار السينمائية عن الموسيقى التصويرية لفيلم «Autour de minuit» وبالفوز بأربع عشرة جائزة من جوائز «غرامي» (Grammy Awards) الموسيقية. وأثّر هانكوك ـ أسطورة العزف على البيانو والتأليف الموسيقي ـ في جميع تيارات الموسيقى الشعبية منذ ستينات القرن الماضي.

مختلف جوانب الثقافة الإسلامية
المجلد الثاني: الفرد والمجتمع في الإسلام

يسعى الإسلام اليوم، ذلك الدين العالمي، منذ نشأته في القرن السابع الميلادي، الى توفير أجوبة حاسمة للمشاكل المعاصرة عبر التاريخ المتعدد الأوجه. ويتم التعامل عبر هذه السلسلة مع قضايا الفقر والثروة، وعدم المساواة والمطالبة بحق التعبير السياسي، واحترام التنوع في عالم يصعب فيه إرضاء الجميع. الكتاب منظم حسب موضوع الدراسة بدلا عن التسلسل الزمني. كما ليس من الضروري أن قراءة المجلدات حسب ترتيبها ، فالمجلد الثاني هو في الواقع الأول من حيث النشر.

القيم إلى أين
حوارات القرن الواحد والعشرون

هذا المجلد الثاني من نوعه هو نتيجة «حوارات القرن الواحد والعشرون» من مختارات اليونسكو، تجمع نحو ٥٠ من العلماء والباحثين في الزوايا الأربع من العالم لإعادة التعريف والتنبؤ بقيم المستقبل، والتفكير في الاتجاه الذي قد تقود إليه الإنسانية. وينقسم المجلد إلى أربعة فصول: مستقبل القيم، العولمة والتكنولوجيات الجديدة والثقافة، نحو عقود اجتماعية جديدة؟ والعلم والمعرفة والتبصر. كل مقطع يتألف من سلسلة من المقالات الرائعة التي يمكن قراءتها بشكل منفصل.

إنشاء مدن أفضل مع الأطفال والشباب
دليل عملي حول كيفية تصور وبناء وتيسير مشاركة الشباب في عملية التنمية المجتمعية.

تم تطوير هذا العمل من خلال مشروع «النشأة في المدن»، وهو في الأصل مشروع اليونسكو لثمانية بلدان (أستراليا والأرجنتين والهند والنرويج وبولندا وجنوب أفريقيا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة) في إطار برنامج «إدارة التحولات الاجتماعية ـ موست». وسيتم توسيعه في وقت لاحق ليشمل لبنان، بابوا نيو غينيا والسويد. ويقدم الكتاب أمثلة ملموسة حول الأساليب التي يمكن استخدامها لإشراك الشباب في البحث وتقييم بيئتهم المحلية، وتحليل وترتيب أولويات القضايا الرئيسية ووضع وتنفيذ خطة العمل.

www.unesco.org/publishing

الاحتفال بالذكرى العاشرة
لإعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي

لقد اعتمد "اعلان اليونسكو العالمي بشأن التنوع الثقافي" في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠١، واضعا التنوع الثقافي في مصاف "التراث المشترك للإنسانية (...) من حيث كونه ضروري للجنس البشري ضرورة التنوع البيولوجي بالنسبة للكائنات الحية"، وتجعل من الدفاع عنه واجبا أخلاقيا ملزما، لا ينفصل عن احترام كرامة الانسان.

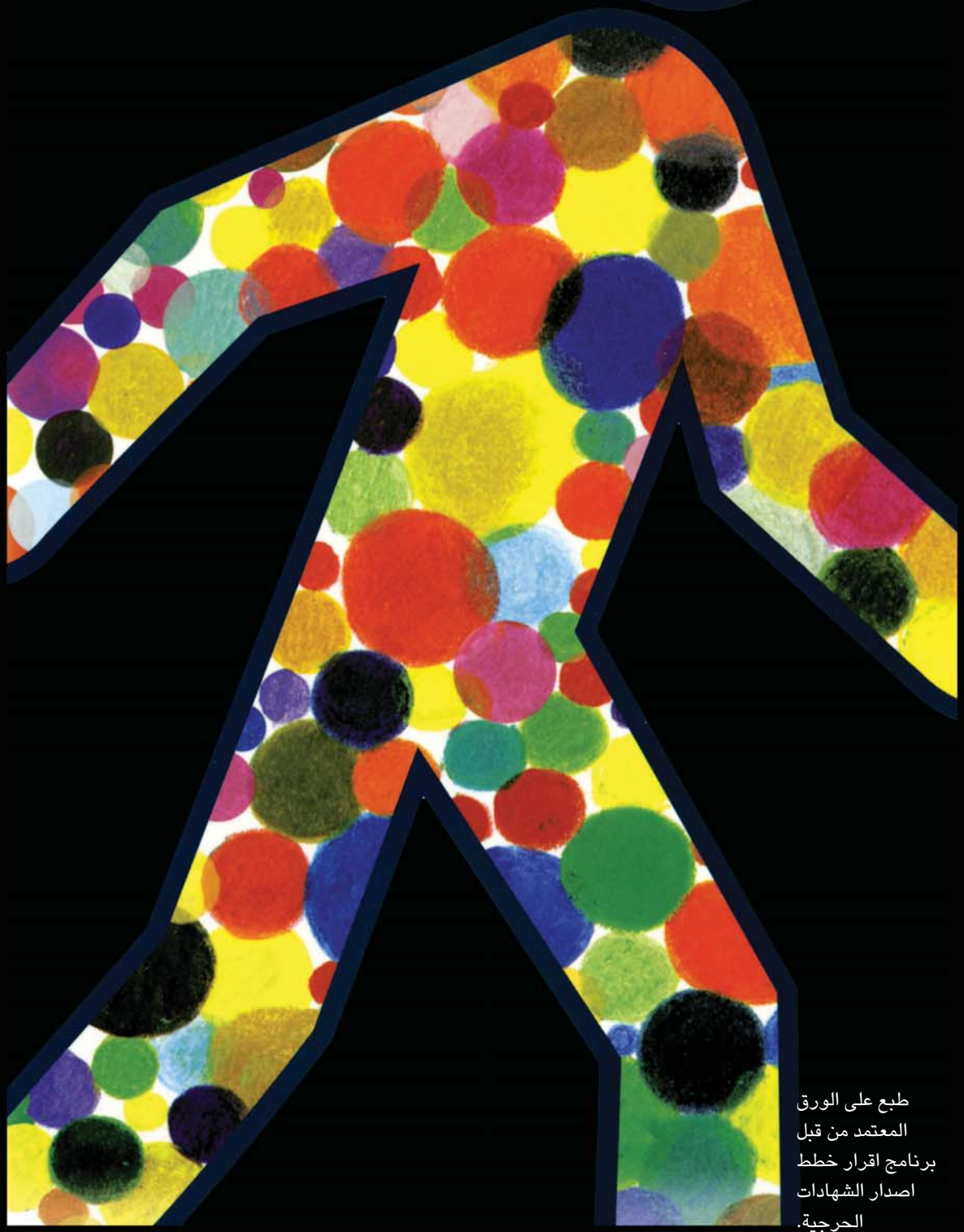

طبع على الورق المعتمد من قبل برنامج اقرار خطط اصدار الشهادات الحرجية.

©اليونسكو

طبع على الورق المعتمد من قبل برنامج اقرار خطط اصدار الشهادات الحرجية.